إتحاف البررة

بموانع التكفير المعتبرة

لفضيلة الشيخ

محمد سالم المجلسي

فك الله أسره

منبر التوحيد والجهاد

إتحـاف البـررة

بموانع التكفير المعتبـرة

لفضيلة الشيخ

محمد سالم ولد محمد الأمين المجلسي

كتبه بالسجن المدني – نواكشوط موريتانيا 1428 هـ

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾[1].

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾[2]. ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا * يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ﴾[3].

إن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة، أما بعد:

فإنه بسب انتشار الجهل والبعد عن هدي النبي صلى الله عليه وسلم قلبت المفاهيم ولعب بالألفاظ وأخل بالموازين حتى صار مجرد الانتساب للإسلام توحيدا وإن أخل صاحبه بأصله وقطعه بعد وصله مما أورث تخبطا كبيرا في إجراء الحكم على مستحقه فالتبس الحق بالباطل واختلط الحابل بالنابل.

ووجد المرجئة ضالتهم وتستر المرتدون الممتنعون المحاربون لأهل الحق وراء كتاباتهم وأفكارهم التي ميعت الدعوة إلى توحيد رب العباد، وأقرت أهل الشرك على ما هم عليه من الفساد والبعد عن سبيل الرشاد.

فعبد مع الله غيره وبدلت شريعته وأكرم أعداؤه وأهين أولياؤه، وعذر بالجهل والتأويل واتباع الشبهات من رام ذلك وأقترفه، وعنف من تمسك بالحق وعرفه، وتمادى أهل الضلال في غيهم. لا يؤاخذون لجهلهم ودفاع المرجئة عنهم حتى صار الجاهل أوفر حظا من العالم.

---

1 – آل عمران الآية 102.

2 – النساء الآية 1.

3 – الأحزاب الآية 70-71.

إن ثمة طائفة – ممن اهتموا بمسائل الكفر والإيمان – ادعت ما ليس لها ولبست غير ثوبها، وتصدت لدعاة التوحيد بقوة، فاتهمتهم بما يصد عن دعوتهم لتبقى الساحة مفتوحة لجر ذيولها، مخلفة أثرها الاستسلامي وروحها الانهزامية بما تدعو له من ترف فكري مميت للهمم، وما تتشبث به من أنفة معتلة في عالم الخيال بعيدا عن الواقع.

إن مما يبين خطورة هذه الفتنة ويظهر مدى تأثيرها، أن طائفة ممن ترعرعوا في ظلال الدعوة الوارفة ووردوا مناهلها العذاب، لم يسلموا من سهامها الطائشة، بل أصابتهم وخلفت جراحات لا تزال تنزف، فراموا أسلمة أهل الكفر، والتمسوا لهم العذر، رغم استنكارهم لأعمالهم الشركية، فوقعوا في تناقض كبير، واتبعوا منهجا بالانتقاد جدير، ومع ذلك نكن الاحترام ونصل حبال المودة لمن منهم أخلص قصده، وبذل في طلب الحق جهده، لا لمن منهم بطلت دعواه وأبى إلا اتباع هواه.

إن مما لا شك فيه أن فكر الإرجاء كان له الدور الكبير في إضعاف العزائم وإماتة الهمم وإطفاء جذوة الجهاد واستعادة الأمجاد في نفوس أبناء خير أمة.

لقد كان من دواعي كتابة هذه السطور ظهور صور كثيرة من الشرك في المجتمعات وتخبط كثير من المنتسبين للدعوة – دون بحث ولا دراسة – في تقويم ذلك تخبطا يصيب دعوة التوحيد في مقاتلها، فأفرط بعضهم وفرط بعض وحاد الفريقان عن سبيل القصد.

نعم إن من الدعاة طائفة آثرت السكوت وعدم الخوض في هذه المسألة لأسباب وهؤلاء نذكر محاسنهم وسبقهم في مجال الدعوة إلى الخير، ولا يدفعنا سكوتهم وكونهم لم يبدوا مواقفهم من عين المسألة إلى إنكار فضلهم أو التقليل من شأنهم، فلهم مزايا عظيمة وأخلاق لا يزالون عليها كريمة.

وإنه ليؤرقني ويحز في وجداني وأنا أكتب هذه الورقات أن يظن أنها رد على العلماء الأخيار وطلبة العلم الأفاضل الذين عذروا بالجهل بشروط معلومة، وبينوا ضابط التمكن من العلم بيانا واضحا، متبعين قواعد سليمة وأدلة معتبرة، لاسيما منهم من عرف بالدعوة للخير والسعي لإقامة الدين، فإني لست مؤهلا للرد عليهم لا علما ولا فضلا ولا مزية، وأهل الدعوة إلى الخير في أمس الحاجة إلى الائتلاف والبعد عن الصراع والاختلاف.

إلا أن ثمة طوائف من تيارات مختلفة توسعت في قولهم واحتجت به في غير موضعه، فعذرت بالجهل من انتسب للإسلام ولو لم ينخلع عن عبادة الأصنام، فوجب البيان.

وقد بينت في هذه الرسالة أن إطلاق التوقف عن التكفير حتى تكتمل الشروط وتنتفي الموانع خطأ، لازمه ألا يكفر الشخص إلا بالعناد وقصد الكفر، والرسالة في الجملة دعوة لتحقيق التوحيد بتعلمه.

واعلم أيها القارئ الكريم أن الكتابات في هذا الموضوع كانت في أكثر الأحيان انتصارا لمواقف بعض العلماء ودفاعا عنها، بدل البحث عما تؤيده نصوص الكتاب والسنة الحاكمة على أقوال الناس. وقد كنت حريصا فيها على الاستدلال بالكتاب والسنة، بفهم السلف وعلماء الأمة الأعلام، متوخيا دقة النقل وصحة العزوى، مراعيا قرب العبارة وسهولة الأسلوب وسميتها:

" إتحاف البررة بموانع التكفير المعتبرة "

وإليكها أيها القارئ الكريم تصفحها برفق، ولا تعرف الحق بالرجال تنعم في ظلالها وتجن ثمارها.

وما كان فيها من حق فمن الله وبفضله وتوفيقه، وما كان فيها من خطإ فمن نفسي ومن الشيطان، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

محمد سالم المجلسي الشنقيطي 20 ربيع الثاني 1428 هـ

فصل

حقيقة التوحيد

1. **معنى لا إله إلا الله**
2. **شروط لا إله إلا الله**
3. **لا إسلام لمن لم يحقق التوحيد**
4. **لا يجوز التقليد في التوحيد**
5. **الكفر بالطاغوت والإيمان بالله**

1. معنى لا إله إلا الله

وهي تدل علي نفي الإلهية عما سوى الله تعالى كائنا من كان، وإثباتها لله وحده دون كل من سواه فلا معبود بحق إلا الله[1]، قال سبحانه: ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾[2]، وقال: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[3]، وقال سبحانه: ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾[4]، وقال: ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾[5]، وقال: ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾[6]، وقال: ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾[7]، وقال: ﴿ قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾[8]، وقال: ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ﴾[9].

(فتبين من ذلك نفي الإلهية عما سوى الله – وهي العبادة – وإثباتها لله وحده لا شريك له والقرآن من أوله إلى آخره يبين هذا ويقرره ويرشد إليه)[10].

(وتوحيد الألوهية هو حقيقة دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد سواه ولا سبيل إلى تحقيقه إلا بإخلاص جميع أنواع العبادة لله تعالى، من محبة وخوف ورجاء وتوكل وصلاة ودعاء واستغاثة وذبح ونذر وطواف واستعاذة وتوبة...)[1].

1- انظر فتح المجيد ص 54.

2 - البقرة الآية 163.

3 - الأنبياء الآية 25.

4 - المؤمنون الآية 23.

5 - الأعراف الآية 65.

6 - هود الآية 61.

7 - الأعراف الآية 85..

8 - الأعراف الآية 70..

9 - النساء الآية 36..

10 - فتح المجيد 52..

وقد عبد المشركون مع الله آلهة أخرى يريدون شفاعتها والقرب بها إلى الله، فلم يشفع لهم قصدهم ولم ينفعهم عند الله، قال سبحانه: ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾[2] .

وقال: ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون ﴾[3].

وما أحسن ما قاله العلامة ابن القيم – رحمه الله – في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ أئفكا آلهة دون الله تريدون * فما ظنكم برب العالمين ﴾[4]، (أي فما ظنكم به أن يجازيكم وقد عبدتم معه غيره ؟ وما الذي ظننتم به حتى جعلتم معه شركاء ؟ أظننتم أنه محتاج إلى الشركاء والأعوان، أم ظننتم أنه يخفى عليه شيء من أحوال عباده حتى يحتاج إلى شركاء تعرفه بها كالملوك ؟ أو هو قاس فيحتاج إلى شفعاء يستعطفونه على عباده ؟ أم ذليل فيحتاج إلى ولي يتكثر به من القلة ويتعزز به من الذلة أم يحتاج إلى الولد فيتخذ صاحبة يكون الولد منها ومنه؟ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا) [5].

1 - راجع تيسير العزيز الحميد ص 39-42.

2- يونس الآية 18.

3- الزمر الآية 3.

4- الصافات الآية 87/86.

5 - مدا رج السالكين 3\325 .

2. شروط لا إله إلا الله

اعلم أن الشرط يلزم من عدمه العدم ولا يلزم من وجوده الوجود، فمتى فقد شرط من هذه الشروط لم يكن صاحبه محققا ل " لا إله إلا الله " فلا ينفعه عندئذ النطق بها.

سئل وهب بن منبه: (أليس " لا إله إلا الله " مفتاح الجنة؟ قال بلى ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك و إلا لم يفتح لك)[1].

1. الشرط الأول:

العلم بمعناها المراد منها نفيا وإثباتا: المنافي للجهل بذلك قال تعالى: ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾[2]، وقال: أيضا ﴿ إلا من شهد بالحق﴾ أي ب " لا إله إلا الله " ﴿ وهم يعلمون ﴾[3]، بقلوبهم ما نطقوا به بألسنتهم، وقال تعالى: ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قآئما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾. وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة)[4] .

2. الشرط الثاني:

اليقين المنافي للشك: ومعنى ذلك أن يكون قائلها مستيقنا بمدلول هذه الكلمة يقينا جازما، فإن الإيمان لا يغني فيه إلا علم اليقين لا علم الظن. قال تعالى: ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾[5].

---

1 – ذكره البخاري معلقا في كتاب الجنائز: باب من كان آخر كلامه " لا إله إلا الله " (3\109).

2 – محمد الآية 19.

3 – الزخرف الآية 86.

4 – رواه مسلم في كتاب الإيمان 26.

5 – الحجرات الآية 15.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أشهد ألا إله إلا الله، وأني رسول الله. لا يلقى الله بهما عبد، غير شاك، فيحجب عن الجنة)[1] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه من حديث طويل (... من لقيت وراء هذا الحائط يشهد ألا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه فبشره بالجنة)[2] .

3. الشرط الثالث:

القبول لما اقتضته هذه الكلمة بقلبه ولسانه: وقد قص الله عز وجل علينا من أنباء ما قد سبق من إنجاء من قبلها، وانتقامه ممن ردها وأباها كما قال تعالى: ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون * قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون * فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾[3] . وقال سبحانه: ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ﴾[4].

4. الشرط الرابع:

الانقياد لما دلت عليه المنافي لترك ذلك: قال سبحانه: ﴿ ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا ﴾[5]. وقال أيضا: ﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور ﴾[6]، أي بلا إله إلا الله. ولا سبيل إلى تحقيق الانقياد والوصول لغايته إلا باتباع النبي صلى الله عليه وسلم ومخالفة النفس والهوى وكل ما يحول دون ذلك. وقال تعالى: ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾[7]، قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية (يقسم الله تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه

---

1 – رواه مسلم في كتاب الإيمان 27.

2 – مسلم، كتاب الإيمان 31.

3 – الزخرف الآية 23-25.

4 – الصافات الآية 35.

5 – النساء الآية 125.

6 – لقمان الآية 22.

7 – النساء الآية 65

لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول صلى الله عليه وسلم في جميع الأمور فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطنا وظاهرا ولهذا قال: ﴿ ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾، أي: إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم، فلا يجدون في أنفسهم حرجا مما حكمت به، وينقادون له في الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليما كليا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة كما ورد في الحديث (والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به)[1].

5. الشرط الخامس:

الصدق المنافي للكذب: وهو أن يقولها صدقا من قلبه، يواطئ قلبه لسانه، لأن المنافقين يقولونها ولكن ليس على وجه الصدق، فقال الله تعالى عنهم: ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾[2]. وعن معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (ما من أحد يشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله صدقا من قلبه إلا حرم الله عليه النار)[3].

قال ابن القيم (والتصديق ب " لا إله إلا الله" يقتضي الإذعان والإقرار بحقوقها وهي شرائع الإسلام التي هي تفصيل هذه الكلمة، بالتصديق بجميع أخباره وامتثال أوامره واجتناب نواهيه... فالمصدق بها على الحقيقة هو الذي يأتي بذلك كله ومعلوم أن عصمة المال والدم على الإطلاق لم تحصل إلا بها وبالقيام بحقها، وكذلك النجاة من العذاب على الإطلاق لم تحصل إلا بها وبحقها)[4].

6. الشرط السادس:

الإخلاص: وهو توحيد الله في القصد، وتصفية العمل بصالح النية عن جميع شوائب الشرك، قال تعالى: ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾[5]. وقال أيضا: ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله

---

1 – تفسير ابن كثير 2\306 والحديث حسنه النووي وضعفه ابن رجب وغيره، ولا شك في صحة معناه.

2 – البقرة الآية 8.

3 – البخاري كتاب العلم 128.

4 – التبيان في أقسام القرآن ص 43.

5 – الزمر الآية 3.

مخلصين له الدين حنفاء ﴾[1]. وروى البخاري من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (أسعد الناس بشفا عتي من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه)[2].

7. الشرط السابع:

المحبة لهذه الكلمة ولما اقتضته ودلت عليه ولأهلها العاملين بها الملتزمين لشروطها وبغض ما ناقض ذلك: قال تعالى: ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾[3]. وفي الصحيحين من حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (ثلاث من كن فيه وجد فيهن حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار)[4].

قال الحكمي (وعلامة حب العبد ربه تقديم محابه وإن خالفت هواه وبغض ما يبغض ربه وإن مال إليه هواه، وموالاة من والى الله ورسوله ومعاداة من عاداه، واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم واقتفاء أثره وقبول هداه)[5].

---

1 – البينة الآية 5.

2 – البخاري كتاب العلم 99.

3 – البقرة الآية 165.

4 – البخاري، الإيمان 16، مسلم، الإيمان 43.

5 – معا رج القبول 1\383 ، راجع الولاء والبراء ص 28 إلى 38 و معا رج القبول 1\377 إلى 383.

3. لا إسلام لمن لم يحقق التوحيد

❖ وجوب معرفة التوحيد

قال البخاري رحمه الله (باب العلم قبل القول والعمل لقول الله تعالى: ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ فبدأ بالعلم).

قال الحافظ (قوله: "فبدأ بالعلم" أي حديث قال: ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ ثم قال: ﴿ واستغفر لذنبك﴾ والخطاب وإن كان للنبي صلى الله عليه وسلم فهو متناول لأمته واستدل سفيان بن عيينة بهذه الآية على فضل العلم، كما أخرجه أبو نعيم في الحلية في ترجمته من طريق الربيع بن نافع عنه أنه تلاها فقال ألم تسمع أنه بدأ به فقال "اعلم" ثم أمره بالعمل؟

وينتزع منها دليل ما يقوله المتكلمون من وجوب المعرفة، لكن النزاع كما قدمناه، إنما هو في إيجاب تعلم الأدلة على القوانين المذكورة في كتب الكلام)[1].

فانظر رحمك الله إلى ما أشار إليه الحافظ من أنه لا نزاع في وجوب المعرفة أي معرفة التوحيد وإنما النزاع في إيجاب تعلم الأدلة على القوانين التي وضع المتكلمون.

❖ مذهب أهل السنة والجماعة

وقد نقل النووي كلاما مطولا للقاضي عياض واستحسنه قال: قال القاضي عياض: (... ومذهب أهل السنة أن المعرفة مرتبطة بالشهادتين لا تنفع إحداهما ولا تنجي من النار دون الأخرى إلا لمن لم يقدر على الشهادتين لآفة بلسانه أو لم تمهله المدة ليقولها...)[2].

❖ الجهل بالله كفر على كل حال

وقد ذكر ابن تيمية عن محمد بن نصر المروزي قال: (قالوا ولما كان العلم بالله إيمانا والجهل به كفرا، وكان العمل بالفرائض إيمانا والجهل بها قبل نزولها ليس كفرا، لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقروا بالله أول ما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم

1 - فتح الباري في 3 مجلدات 1\287.

2 - شرح صحيح مسلم 1\219.

إليهم، ولم يعلموا الفرائض التي افترضت عليهم بعد ذلك، فلم يكن جهلهم بذلك كفرا، ثم أنزل الله عليهم الفرائض فكان إقرارهم والقيام بها إيمانا وإنما يكفر من جحدها لتكذيبه خبر الله، ولو لم يأت خبر من الله ما كان بجهلها كافرا، وبعد مجيئ الخبر من لم يسمع الخبر من المسلمين، لم يكن بجهلها كافرا، والجهل بالله في كل حال كفر قبل الخبر وبعد الخبر)[1].

وقال علاء الدين أبو بكر مسعود بن أحمد الكاساني: (فإن أبا يوسف روى عن أبي حنيفة رحمه الله هذه العبارة: فقال كان أبو حنيفة رضي الله عنه يقول: لا عذر لأحد من الخلق في جهله معرفة الرب سبحانه وتعالى وتوحيده لما يرى من خلق السماوات والأرض وخلق نفسه وسائر ما خلق الله سبحانه، فأما الفرائض فمن لم يعلمها ولم تبلغه فإن هذا لم تقم عليه حجة حكمية)[2].

❖ تقييد عدم المؤاخذة بالجهل بما دون التوحيد

وأقوال علماء السلف حافلة بذلك، فإنهم إنما يقيدون بالجهل الكفر في ترك الفرائض لا التوحيد.

قال عبد الله بن أحمد حدثنا سويد بن سعيد الهروي قال سألنا سفيان بن عيينة عن الإرجاء فقال: (يقولون الإيمان قول وعمل، والمرجئة أوجبوا الجنة لمن شهد ألا إله إلا الله مصرا بقلبه على ترك الفرائض، وسموا ترك الفرائض ذنبا بمنزلة ركوب المحارم، وليس بسواء، لأن ركوب المحارم من غير استحلال معصية وترك الفرائض متعمدا من غير جهل ولا عذر هو كفر)[3] .

❖ مقتضى الشهادة ومدلولها

عن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من شهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان منه من العمل)[4].

---

1 – مجموع الفتاوى 7\325.

2 – بدائع الصنائع وترتيب الشرائع 7\132.

3 – السنة لعبد الله بن أحمد 1\348،347.

4 – البخاري، كتاب الأنبياء 3435 ومسلم، كتاب الإيمان 46،28.

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن (من شهد ألا إله إلا الله أي من تكلم بها عارفا لمعناها، عاملا بمقتضاها باطنا وظاهرا، فلا بد في الشهادتين من العلم واليقين والعلم بمدلولها كما قال تعالى ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾[1]، وقوله ﴿إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾[2]، أما النطق بها من غير معرفة لمعناها ولا يقين ولا عمل بما تقتضيه من البراءة من الشرك وإخلاص القول والعمل، قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح، فغير نافع بالإجماع)[3].

وقال بعد أن ذكر أقوال العلماء في معنى " لا إله إلا الله ": (فدلت " لا إله إلا الله " على نفي الإلهية عن كل ما سوى الله تعالى كائنا من كان وإثبات الإلهية لله وحده دون كل ما سواه وهذا هو التوحيد الذي دعت إليه الرسل، ودل عليه القرآن من أوله إلى آخره، كما قال تعالى عن الجن ﴿ قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا * يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ﴾[4]، فلا إله إلا الله لا تنفع إلا من عرف مدلولها نفيا وإثباتا واعتقد ذلك وقبله وعمل به، وأما من قالها من غير علم واعتقاد وعمل، فقد تقدم في كلام العلماء أن هذا جهل صرف، فهي حجة عليه بلا ريب، فقوله في الحديث (وحده لا شريك له) تأكيد وبيان لمضمون معناها وقد أوضح الله ذلك وبينه في قصص الأنبياء والمرسلين في كتابه المبين، فما أجهل عباد القبور بحالهم، وما أعظم ما وقعوا فيه من الشرك المنافي لكلمة الإخلاص " لا إله إلا الله " فإن مشركي العرب ونحوهم جحدوا " لا إله إلا الله " لفظا ومعنى، وهؤلاء المشركون أقروا بها لفظا وجحدوها معنى فتجد أحدهم يقولها وهو يأله غير الله بأنواع العبادة)[5] .

❖ لا شهادة إلا مع العلم

وقال العالم المحدث سليمان بن عبد الله في كتابه الموسوم ب "تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد" عند هذا الحديث: (قوله " من شهد ألا إله إلا الله " أي من تكلم بهذه الكلمة عارفا لمعناها عاملا بمقتضاها باطنا وظاهرا كما دل عليه قوله: ﴿ فاعلم أنه لا إله

1 – محمد الآية 19.

2 – الزخرف الآية 86.

3 – فتح المجيد ص 51 تحقيق أحمد حامد الفقي، تعليق ابن باز .

4 – الجن الآية 2/1 .

5 – فتح المجيد ص 54.

إلا الله ﴾[1]، وقوله: ﴿ إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾[2]، **أما النطق بها من غير معرفة لمعناها ولا عمل بمقتضاها، فإن ذلك غير نافع بالإجماع.**

وفي الحديث ما يدل على هذا وهو قوله "من شهد" إذ كيف يشهد وهو لا يعلم ومجرد النطق بشيء لا يسمى شهادة به)[3].

وقال عبد الرحمن بن حسن في كلامه عن حديث بعث معاذ في قوله صلى الله عليه وسلم (فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة ألا إله إلا الله): (وكانوا يقولونها لكنهم جهلوا معناها الذي دلت عليه من إخلاص العبادة لله وحده وترك عبادة ما سواه، فكان قولهم لا إله إلا الله لا ينفعهم لجهلهم بمعنى هذه الكلمة، كحال أكثر المتأخرين من هذه الأمة، فإنهم كانوا يقولونها مع ما كانوا يفعلونه من الشرك بعبادة الأموات والغائبين والطواغيت والمشاهد، فيأتون بما ينافيها، فيثبتون ما نفته من الشرك باعتقادهم وقولهم وفعلهم وينفون ما أثبتته من الإخلاص كذلك..

وقد تقدم أن لا إله إلا الله قد قيدت في الكتاب والسنة بقيود ثقال منها العلم واليقين والإخلاص والصدق والمحبة والقبول والانقياد والكفر بما يعبد من دون الله، فإذا اجتمعت هذه القيود لمن قالها نفعته هذه الكلمة وان لم تجتمع هذه لم تنفعه، والناس متفاوتون في العلم بها والعمل، فمنهم من ينفعه قولها ومنهم من لا ينفعه كما لا يخفى)[4].

❖ الخطأ في فهم أحاديث من قال لا إله إلا الله

وهذه كلمات مضيئة في الرد على من يخطئون في فهم أحاديث الوعد لمن قال " لا إله إلا الله " فيحكمون لمن تلفظ بها بالإسلام ولو لم ينخلع عن عبادة غير الله كما يفعل القبور يون وغيرهم.

قال محمد حامد الفقي (كثير من الناس يخطئون في فهم أحاديث " من قال لا إله إلا الله دخل الجنة " فيظنون أن التلفظ بها يكفي وحده للنجاة من النار ودخول الجنة وليس كذلك، فإن من يظن ذلك من المغرورين لم يفهم " لا إله إلا الله " لأنه لم يتدبرها إذ أن

1 – محمد الآية 19.
2 – الزخرف الآية 86.
3 – تيسير العزيز الحميد ص 72.
4 – قرة عيون الموحدين ص 48.

حقيقة معناها البراءة من كل معبود والتعهد بتجريد كل أنواع العبادة لله سبحانه وحده، والقيام به على الوجه الذي يحبه ويرضاه، فمن لم يقم بحقها من العبادة أو قام ببعض أنواع العبادة ثم عبد مع الله غيره، من دعاء الأولياء والصالحين والنذر لهم ونحو ذلك، فإنه يكون هادما لها، فلا تنفعه دعواه ولا تغني عنه شيئا. ولو كان مجرد قولها كافيا، لم يقع من المشركين ما وقع من محاربة الرسول صلى الله عليه وسلم ومعاداته قال الله تعالى ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾[1]، وقال: ﴿ إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾[2]، فمن لم يوف بها ويعمل بمقتضاها، لا ينفعه التلفظ، وكل من جعل شيئا من العبادة لغير الله فهو إما جاهل بمعناها أو كاذب في ادعائه الإيمان وأولئك هم المغرورون الأخسرون أعمالا ﴿ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾[3])[4] . وقال رحمه الله: (كثير من أدعياء العلم يجهلون " لا إله إلا الله " فيحكمون على من تلفظ بها بالإسلام ولو كان مجاهرا بالكفر الصراح، كعبادة القبور والموتى والأوثان واستحلال المحرمات المعلوم تحريمها من الدين ضرورة والحكم بغير ما أنزل الله، واتخاذ أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله، ولو كانت لهؤلاء الجهلة قلوب يفقهون بها لعلموا أن معنى " لا إله إلا الله " البراءة من عبادة غير الله، وإعطاء العهد والميثاق بالقيام بأداء حق الله في العبادة، يدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾[5]، وقد شهد النبي صلى الله عليه وسلم للخوارج بكثرة الصلاة والصيام وقراءة القرآن المشحون بلا إله إلا الله، ومع ذلك فقد حكم عليهم بالكفر وقال (لو أدركتهم لقتلتهم قتل عاد) كما في الصحيحين، ولو كان مجرد التلفظ بلا إله إلا الله كافيا ما وقعت الحرب والعداء بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين المشركين الذين كانوا يفهمون لا إله إلا الله أكثر مما يفهمها أدعياء العلم في هذا الزمن، ولكن طبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون)[6].

1 – محمد الآية 19.

2 – الزخرف الآية 86.

3 – الكهف الآية 104.

4 – هامش فتح المجيد، 72.

5 – البقرة الآية 256.

6 – هامش فتح المجيد، ص 258.

4. لا يجوز التقليد في التوحيد

❖ تعريف التقليد ومنعه

قال الشوكاني رحمه الله في التقليد: (هو العمل بقول الغير من غير حجة)[1]، وقال أيضا بعد أن ذكر بعض أقوال العلماء فيه: (وبهذا تعلم أن المنع من التقليد إذا لم يكن إجماعا فهو مذهب الجمهور)[2].

❖ التقليد في التوحيد

وقال في أول كتابه (السيل الجرار): (إن قوله " الفرعية" يخرج الأصلية أي مسائل أصول الدين وأصول الفقه، وإلى هذا ذهب الجمهور لاسيما في أصول الدين، فقد حكى الأستاذ أبو إسحاق في شرح الترتيب: أن المنع من التقليد فيها هو إجماع أهل العلم من أهل الحق وغيرهم من الطوائف. قال أبو الحسن بن القطان: (لا نعلم خلافا في امتناع التقليد في التوحيد)، وحكاه ابن السمعاني عن جميع المتكلمين وطائفة من الفقهاء. وقال إمام الحرمين في الشامل: (لم يقل بالتقليد في الأصول إلا الحنابلة). وقال الاسفراييني لم يخالف فيه إلا أهل الظاهر. ولم يحك ابن الحاجب الخلاف في ذلك إلا عن العنبري، وحكاه في المحصول عن كثير من الفقهاء، واستدل الجمهور على منع التقليد في ذلك بأن الأمة أجمعت على وجوب معرفة الله سبحانه وأنها لا تحصل بالتقليد، لأن المقلد ليس معه إلا الأخذ بقول من يقلده، ولا يدري أهو صواب أم خطأ)[3].

وقال القرطبي في تفسيره لسورة الأعراف عند آية الميثاق (ولا عذر للمقلد في التوحيد)[4].

❖ عاقبة المقلد في العقائد

---

1 – إرشاد الفحول 441 .

2 – إرشاد الفحول 445.

3 – السيل الجرار – الطبعة الأولى في مجلد واحد ص 12.

4 – الجامع لأحكام القرآن 319/7.

وقد روى البخاري من حديث قتادة عن أنس أنه حدثهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه – وإنه ليسمع قرع نعالهم–أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان ما كنت تقول في هذا الرجل؟ لمحمد ص؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله فيقال له، انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة، فيراهما جميعا " قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره، ثم رجع إلى حديث أنس قال: وأما المنافق والكافر، فيقال له ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول لا أدري كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دريت ولا تليت ويضرب بمطارق من حديد ضربة، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين)[1].

قال الحافظ: (**وفيه ذم التقليد في الإعتقادات لمعاقبة من قال، كنت أسمع الناس يقولون شيئا فقلته..**)[2].

❖ التقليد سبب للضلال

وهل كان آفة كثير من الخلق إلا التقليد؟ قال سبحانه: ﴿ ... ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون * قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾[3]. وقال سبحانه: ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾[4]. وقال سبحانه: ﴿ وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ﴾[5].

قال الشوكاني رحمه الله (والمراد بالسادة والكبراء هم الرؤساء والقادة الذين كانوا يمتثلون أمرهم في الدنيا ويقتدون بهم، وفي هذا زجر عن التقليد شديد، وكم في الكتاب العزيز من التنبيه على هذا والتحذير منه والتنفير عنه، ولكن لمن يفهم معنى كلام الله ويقتدي به وينصف من نفسه، لا لمن هو من جنس الأنعام في سوء الفهم ومزيد البلادة وشدة التعصب)[6].

---

1 – صحيح البخاري، كتاب الجنائز 1374.

2 – فتح الباري (806/1) طبعة في ثلاث مجلدات.

3 – الأنبياء الآية 52/ 53.

4 – الزخرف الآية 22.

5 – الأحزابالآية 67.

6 – فتح القدير 441/4.

وقال سبحانه: ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون ﴾[1].

قال ابن كثير (أي: إذا دعوا إلي دين الله وشرعه وما أوجبه وترك ما حرمه قالوا يكفينا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرائق والمسالك، قال الله تعالى: ﴿ أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون ﴾ أي: لا يفهمون حقا ولا يعرفونه ولا يهتدون إليه، فكيف يتبعونهم والحالة هذه؟ لا يتبعهم إلا من هو أجهل منهم وأضل سبيلا)[2].

وقد اتفق العلماء المحققون على الاستدلال بهذه الآيات – رغم ورودها في المشركين– وإيرادها في المقلدين أيا كان نوع تقليدهم المذموم، فما الظن بالتقليد في الشرك بالله والكفر؟

❖ التقليد سبب للتكذيب والعناد

يقول سبحانه: ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾[3]، قال الشوكاني (وانتقل إلى بيان أنهم سارعوا إلى تكذيب القرآن قبل أن يتدبروه ويفهموا معانيه وما اشتمل عليه، وهكذا صنع من تصلب في التقليد ولم يبال بما جاء به من دعا إلى الحق وتمسك بذيول الإنصاف بل يرده بمجرد كونه لم يوافق هواه، ولا جاء على طبق دعواه قبل أن يعرف معناه ويعلم مبناه، كما تراه عيانا وتعلمه وجدانا والحاصل أن من كذب بالحجة النيرة والبرهان الواضح قبل أن يحيط بعلمه، فهو لم يتمسك بشيء في هذا التكذيب إلا مجرد كونه جاهلا لما كذب به غير عالم به، فكان بهذا التكذيب مناديا على نفسه بالجهل بأعلى صوت، ومسجلا بقصوره عن تعقل الحجج بأبلغ تسجيل وليس على الحجة ولا على من جاء بها من تكذيبه شيء.

ما يبلغ الأعداء من جاهـل ما يبلغ الجاهل من نفسـه)[4].

❖ من طلب الحق لا يعدم مطلبه

1 – المائدة الآية 104.

2 – تفسير القرآن العظيم 108،109/2.

3 – يونس الآية 39.

4 – فتح القدير في مجلد واحد – الطبعة الأولى – ص 765.

قال الشوكاني: (إذا تقرر لك أن العامي يسأل أهل العلم، والمقصر يسأل الكامل، فعليه أن يسأل أهل العلم المعروفين بالدين وكمال الورع عن العالم بالكتاب والسنة العارف بما فيهما، المطلع على ما يحتاج إليه في فهمهما من العلوم الآلية حتى يدلوه عليه ويرشدوه إليه، فيسأله عن حادثته طلبا منه أن يذكر له فيها ما في كتاب الله سبحانه أو ما في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فحينئذ يأخذ الحق من معينه، ويستفيد الحكم من موضوعه ويستريح من الرأي الذي لا يأمن المتمسك به أن يقع في الخطإ المخالف للشرع المباين للحق، ومن سلك هذا المنهج ومشى في هذا الطريق لا يعدم مطلبه ولا يفقد من يرشده إلى الحق)[1].

قال العلامة أبو بطين مفتي الديار النجدية: (ومن العجب أن بعض الناس إذا سمع من يتكلم في معنى هذه الكلمة نفيا وإثباتا عاب ذلك، وقال لسنا مكلفين بالناس والقول فيهم، فيقال له بل أنت مكلف بمعرفة التوحيد الذي خلق الله الجن والإنس لأجله وأرسل جميع الرسل يدعون إليه، ومعرفة ضده وهو الشرك الذي لا يغفر، ولا عذر للمكلف في الجهل بذلك، ولا يجوز فيه التقليد لأنه أصل الأصول، فمن لم يعرف المعروف وينكر المنكر فهو هالك، لاسيما أعظم المعروف وهو التوحيد وأكبر المنكرات وهو الشرك)[2].

1 – إرشاد الفحول ص 451.

2 – عقيدة الموحدين، الانتصار لحزب الله الموحدين ص11.

5. الكفر بالطاغوت والإيمان بالله

يقول سبحانه: ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾[1]. قال ابن كثير رحمه الله (أي من خلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله، ووحد الله فعبده وحده وشهد ألا إله إلا الله ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ﴾ أي فقد ثبت في أمره واستقام على الطريقة المثلى والصراط المستقيم)[2].

❖ تعريف الطاغوت

(والطاغوت مشتق من الطغيان وهو مجاوزة الحد، وقد فسره السلف ببعض أفراده، قال عمر بن الخطاب ر: الطاغوت الشيطان وقال جابر رضي الله عنه الطواغيت كهان كانت تنزل عليهم الشياطين رواهما ابن أبي حاتم وقال مجاهد: الطاغوت الشيطان في صورة الإنسان يتحاكمون إليه وهو صاحب أمرهم، وقال مالك: الطاغوت كل ما عبد من دون الله)[3]. وقول عمر قال ابن كثير في تفسيره إنه قول ابن عباس وأبي العالية ومجاهد وعطاء وعكرمة وسعيد بن جبير والشعبي والحسن والضحاك والسدي، وقال إنه (قوي جدا، فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية من عبادة الأوثان والتحاكم إليها والانتصار بها)[4].

وقال تعالى: ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا ﴾[5].

وقال ابن كثير رحمه الله بعد أن ذكر بعض معاني الآية: (والآية أعم من ذلك كله، فإنها ذامة لمن عدل عن الكتاب والسنة وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت هنا...)[1].

---

1 – البقرة الآية 256.

2 – تفسير القرآن العظيم 311/1.

3 – تيسير العزيز الحميد ص 50.

4 – تفسير القرآن العظيم 311/1.

5 – النساء الآية 60.

وقال سبحانه: ﴿ الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا ﴾[2]، قال الطبري (طاعة الشيطان وطريقه ومنهاجه الذي شرع لأوليائه من أهل الكفر بالله...)[3].

❖ أنواع الطاغوت

ورغم تعدد الطواغيت إلا أنها ترجع إلى ثلاثة، ذكرها سليمان بن سحمان، فقال: (الطاغوت ثلاثة أنواع طاغوت حكم وطاغوت عبادة وطاغوت طاعة ومتابعة)[4].

وقال ابن القيم رحمه الله (الطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله أو يعبدونه من دون الله أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله، فهذه طواغيت العالم، إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها، رأيت أكثرهم عدلوا عن عبادة الله إلى عبادة الطاغوت وعن التحاكم إلى الله والرسول إلى التحاكم إلى الطاغوت وعن طاعته ومتابعة رسوله صلى الله عليه وسلم إلى طاعة الطاغوت ومتابعته)[5].

❖ عصمة الدم والمال بعبادة الله وحده والكفر بما يعبد من دونه

وقد روى مسلم (23) من حديث أبي مالك عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله)[6].

قال ابن القيم عن لا إله إلا الله (... ومعلوم أن عصمة المال والدم على الإطلاق لم تحصل إلا بها وبالقيام بحقها، وكذلك النجاة من العذاب على الإطلاق لم تحصل إلا بها وبحقها)[1].

---

1 - تفسير القرآن العظيم 519/1.

2 - النساء الآية 76.

3 - تفسير الطبري 169/5.

4 - الدرر السنية 272/8.

5 - إعلام الموقعين 50/1.

6 - مسلم 23.

❖ من لم يكن موحدا كان مشركا ولا بد

يقول سبحانه: ﴿ هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير ﴾[2]، قال البغوي (... وجملة القول فيه، أن الله خلق الكافر وكفره فعل له وكسب، وخلق المؤمن وإيمانه فعل له وكسب، فلكل واحد من الفريقين كسب واختيار، وكسبه واختياره بتقدير الله ومشيئته، فالمؤمن بعد خلق الله إياه يختار الإيمان، لأن الله تعالى أراد ذلك منه، وقدره عليه، وعلمه منه، والكافر بعد خلق الله تعلى إياه يختار الكفر، لأن الله تعلى أراد ذلك منه وقدره عليه وعلمه منه، وهذا طريق أهل السنة والجماعة من سلكه أصاب الحق وسلم من الجبر والقدر)[3]. وقال سبحانه: ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ﴾[4].

قال البغوي (قال ابن عباس: من خسر نفسه، وقال الكلبي: ضل من قبل نفسه، وقال أبو عبيدة: أهلك نفسه، وقال ابن كيسان والزجاج: معناه جهل نفسه، والسفاهة الجهل وضعف الرأي وكل سفيه جاهل، **وذلك أن من عبد غير الله فقد جهل نفسه، لأنه لم يعرف أن الله خلقها**)[5].

وقال ابن القيم فيها (فقسم سبحانه الخلائق قسمين سفيها لا أسفه منه ورشيدا، فالسفيه من رغب عن ملته إلى الشرك، والرشيد من تبرأ من الشرك قولا وعملا وحالا فكان قوله توحيدا وعمله توحيدا وحاله توحيدا ودعوته إلى التوحيد)[6].

وقال رحمه الله (فالمعرض عن التوحيد مشرك شاء أم أبى والمعرض عن السنة مبتدع ضال شاء أم أبى)[7].

---

1 – التبيان في أقسام القرآن ص 43.

2 – التغابن الآية 2.

3 – معالم التنزيل ص 1319.

4 – البقرة الآية 130.

5 – معالم التنزيل – الطبعة الأولى في مجلد واحد – ص 66.

6 – مدا رج السالكين 466/3.

7 – إغاثة اللهفان 214/1

وقال ابن تيمية (من لم يعبد الله وحده فلا بد أن يكون عابدا لغيره، يعبد غيره فيكون مشركا، فليس في بني آدم قسم ثالث، بل إما موحد وإما مشرك، أو من خلط هذا بهذا كالمبدلين من أهل الملل، النصارى ومن أشبههم من الضلال المنتسبين إلى الإسلام)[1].

وقال رحمه الله (... فكل من لم يعبد الله مخلصا له الدين فلا بد أن يكون مشركا عابدا لغير الله وهو في الحقيقة عابد للشيطان)[2].

1 - مجموع الفتاوى 282/14.

2 - مجموع الفتاوى 285/14.

فصل

بطلان الشرك وقبحه

1. الميثاق والفطرة حجة على بطلان الشرك
2. قبح الشرك في العقل
3. الاحتجاج بالربوبية على بطلان الشرك في الألوهية
4. اقتران وصفي الشرك والجهل

1. الميثاق والفطرة حجة على بطلان الشرك

يقول سبحانه: ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾[1] .

قال ابن كثير: (يخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى التي فطر عليها عباده، من الاعتراف له بأنه لا إله إلا هو كما قال تعالى: ﴿ فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون﴾[2].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أوينصرانه أويمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء)[3] [4]، وقال في قوله سبحانه: ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ﴾[5]، (أي: أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له حالا وقالا والشهادة تارة تكون بالقول، كقوله: ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾[6]، وتارة تكون حالا كما قال تعالى: ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون ﴾[7]. أي حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك وكما قال تعالى: ﴿ وإنه على ذلك لشهيد ﴾[8]، كما أن السؤال تارة يكون بالمقال وتارة يكون بالحال

---

1 – هود الآية 17.

2 – الروم الآية 30.

3 – البخاري (1385) ومسلم (2658).

4 – مختصر تفسير ابن كثير لأحمد محمد شاكر (223/2) الطبعة الأولى ، دار الوفاء 2003-1424.

5 – الأعراف الآية 172.

6 – الأنعام الآية 130.

7 – التوبة الآية 17.

8 – العاديات الآية 7.

كما في قوله ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾[1]. قالوا ومما يدل على أن المراد بهذا، أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قاله، لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه، فإن قيل إخبار الرسول صلى الله عليه وسلم كاف في وجوده؟

فالجواب: أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءت به الرسل من هذا وغيره. وهذا جعل حجة مستقلة عليهم، فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد، ولهذا قال ﴿ أن تقولوا ﴾ أي: لئلا تقولوا يوم القيامة ﴿ إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ أي: التوحيد ﴿ أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا ﴾ الآية.[2].

وقال البغوي: ﴿ أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ﴾ (يقول: إنما أخذت الميثاق عليكم لئلا تقولوا أيها المشركون إنما أشرك آباؤنا من قبل ونقضوا العهد وكنا ذرية من بعدهم، أي كنا أتباعا لهم فاقتدينا بهم فتجعلوا هذا عذرا لأنفسكم وتقولوا ﴿ أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ أفتعذبنا بجناية آبائنا المبطلين فلا يمكنهم أن يحتجوا بمثل هذا الكلام بعد تذكير الله تعالى بأخذ الميثاق على التوحيد.

﴿ وكذلك نفصل الآيات ﴾ أي نبين الآيات ليتدبرها العباد ﴿ ولعلهم يرجعون ﴾ من الكفر إلى التوحيد[3].

وقال الشوكاني: (أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) (أي :عن كون الله ربنا وحده لا شريك له.

قوله: ﴿ أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل ﴾ معطوف على ﴿ تقولوا ﴾ الأول، أي فعلنا ذلك كراهة أن تعتذروا بالغفلة، أو تنسبوا الشرك إلى آبائكم دونكم و "أو" لمنع الخلو دون الجمع، فقد يعتذرون بمجموع الأمرين "من قبل" أي: من قبل زماننا ﴿ وكنا ذرية من بعدهم ﴾ لا نهتدي إلى الحق ولا نعرف الصواب ﴿ أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾ من آبائنا ولا ذنب لنا لجهلنا وعجزنا عن النظر واقتفائنا آثار سلفنا.

---

1 -إبراهيم الآية 34.

2 – مختصر تفسير ابن كثير 66.65/2.

3 – تفسير البغوي– الطبعة الأولى في مجلد واحد– ص 500، دار ابن حزم 1423هـ – 2002 م.

بين الله سبحانه في هذه الآية الحكمة التي لأجلها أخرجهم من ظهر آدم وأشهدهم على أنفسهم وأنه فعل ذلك بهم لئلا يقولوا هذه المقالة يوم القيامة ويعتلوا بهذه العلة الباطلة ويعتذروا بهذه المعذرة الساقطة "وكذلك" أي: ومثل ذلك التفصيل ﴿ نفصل الآيات ولعلهم يرجعون ﴾ إلى الحق ويتركون ما هم عليه من الباطل)[1]

1 – فتح القدير ص 630، الطبعة الأولى في مجلد واحد –1421–2002 م دار ابن حزم.

2. قبح الشرك في العقل

والقرآن زاخر بالدعوة إلى التدبر والتأمل وإعمال العقل للوصول إلى الحقائق خصوصا حقيقة التوحيد وضرورته والشرك وبطلانه، وضرب الله على ذلك الأمثلة للناس لعلهم يعقلون ولو لم يكن قبح الشرك معلوما بالعقل وكذلك حسن التوحيد لما كان لتلك الأمثلة معنى.

قال ابن القيم (وكذلك إنكاره سبحانه قبح الشرك به في إلهيته وعبادة غيره معه بما ضرب به لهم من الأمثال وأقام على بطلانه من الأدلة العقلية ولو كان إنما قبح بالشرع لم يكن لتلك الأدلة والأمثال معنى. وعند نفاة التحسين والتقبيح يجوز في العقل أن يأمر بالإشراك وبعبادة غيره. وإنما علم قبحه بمجرد النهي عنه فيا عجبا! أي فائدة تبقى في تلك الأمثال والحجج والبراهين الدالة على قبحه في صريح العقل والفطرة؟ وأنه أقبح القبيح وأظلم الظلم. وأي شيء يصح في العقل إذا لم يكن فيه علم بقبح الشرك الذاتي وأن العلم بقبحه بديهي معلوم بضرورة العقل. وأن الرسل نبهوا الأمم على ما في عقولهم وفطرهم من قبحه.

والقرآن مليئ بهذا – الأدلة العقلية على بطلان الشرك وقبحه– لمن تدبره كقوله تعالى : ﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾[1]. يحتج سبحانه عليهم بما في عقولهم من قبح كون مملوك أحدهم شريكا له، فإذا كان أحدهم يستقبح أن يكون مملوكه شريكه ولا يرضى بذلك، فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء تعبدونهم كعبادتي ؟ وهذا يبين أن قبح عبادة غير الله تعالى مستقر في العقول والفطر. والسمع نبه العقول وأرشدها إلى معرفة ما أودع فيها من قبح ذلك.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾[2]. احتج سبحانه وتعالى على قبح الشرك بما تعرفه العقول من الفرق بين حال مملوك يملكه أرباب متعاسرون سيئوا الملكة وحال عبد يملكه سيد واحد قد سلم كله له.

---

1 – الروم الآية 28.

2 – الزمر الآية 29.

فهل يصح في العقول استواء حال العبدين فكذلك حال المشرك والموحد الذي قد سلمت عبوديته لإلهه الحق لا يستويان)[1].

1 - مدارج السالكين 1/253-256.

3. الاحتجاج بالربوبية على بطلان الشرك في الألوهية

وهذا كلام في غاية الحسن للعلامة محمد الأمين ولد محمد المختار الجكني رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ﴾[1]. قال : (ويكثر في القرآن العظيم الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبيته جل وعلا على وجوب توحيده في عبادته ولذلك يخاطبهم في توحيد الربوبية باستفهام التقرير فإذا أقروا بربوبيته احتج بها عليهم على أنه هو المستحق لأن يعبد وحده ووبخهم منكرا عليهم شركهم به غيره مع اعترافهم بأنه هو الرب وحده لأن من اعترف بأنه هو الرب وحده لزمه الاعتراف بأنه هو المستحق لأن يعبد وحده.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله ﴾ فلما أقروا بربوبيته وبخهم منكرا عليهم شركهم بقوله: ﴿ فقل أفلا تتقون ﴾[2].

ومنها قوله تعالى: ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ﴾[3]، ﴿ سيقولون لله ﴾ فلما اعترفوا وبخهم منكرا عليهم شركهم بقوله: ﴿ قل أفلا تذكرون ﴾[4]. ثم قال: ﴿ قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ﴾[5] فلما أقروا وبخهم منكرا عليهم شركهم بقوله: ﴿ سيقولون لله قل أفلا تتقون ﴾[6]، ثم قال: ﴿ قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ﴾[7] فلما أقروا وبخهم منكرا عليهم شركهم بقوله: ﴿ سيقولون لله قل فأنى تسحرون ﴾[8]. ومنها قوله تعالى: ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله ﴾ فلما صح اعترافهم وبخهم منكرا عليهم شركهم

---

1 – الإسراء الآية 9.

2 – يونس الآية 31.

3 – المؤمنون الآية 84.

4 – المؤمنون الآية 85.

5 – المؤمنون الآية 86.

6 – المؤمنون الآية 87.

7 – المؤمنون الآية 88.

8 – المؤمنون الآية 89.

بقوله: ﴿ فأنى يؤفكون ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله ﴾ فلما صح إقرارهم وبخهم منكرا عليهم شركهم بقوله: ﴿ قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون ﴾[2]. وقوله سبحانه: ﴿ آلله خير أما يشركون * أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ﴾ ولا شك أن الجواب الذي لا جواب لهم البتة غيره هو أن القادر على خلق السموات والأرض وما ذكره معهما خير من جماد لا يقدر على شيء فلما تعين اعترافهم وبخهم منكرا عليهم بقوله: ﴿ أإله مع الله بل هم قوم يعدلون ﴾[3]. والآيات بنحو هذا كثيرة جدا ولأجل ذلك ذكرنا في غير هذا الموضع أن كل الأسئلة المتعلقة بتوحيد الربوبية استفهامات تقرير يراد منها أنهم إذا أقروا رتب لهم التوبيخ والإنكار على ذلك الإقرار لأن المقر بالربوبية يلزمه الإقرار بالألوهية ضرورة)[4].

وقال ابن القيم رحمه الله (والإلهية التي دعت الرسل أممهم إلى توحيد الرب بها هي العبادة والتأله ومن لوازمها: توحيد الربوبية الذي أقر به المشركون فاحتج الله عليهم به فإنه يلزم من الإقرار به الإقرار بتوحيد الإلهية).[5]

وقال ابن كثير (هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية، فقال تعالى: ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ﴾[6] أي: أوجدوا من غير موجود؟ أم أوجدوا أنفسهم؟ أي لا هذا ولا هذا بل الله خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا)[7].

وقال السعدي في تفسيرها (وهذا استدلال عليهم بأمر لا يمكنهم فيه إلا التسليم للحق أو الخروج عن موجب العقل والدين. وبيان ذلك أنهم منكرون لتوحيد الله مكذبون لرسله وذلك مستلزم لإنكارهم أن الله خلقهم وقد تقرر في العقل مع الشرع أن ذلك لا يخلو من ثلاثة أمور، إما أنهم خلقوا من غير شيء أي: لا خالق خلقهم، بل وجدوا من غير إيجاد ولا موجد، وهذا عين المحال، أم هم الخالقون لأنفسهم؟ وهذا أيضا محال، فإنه لا يتصور أن

---

1 - العنكبوت الآية 61.

2 - (العنكبوت الآية 63

3 - النمل الآية 60.

4 - أضواء البيان.

5 - إغاثة اللهفان (135/2).

6 - الطور الآية 35.

7 - تفسير ابن كثير 244/4.

يوجد أحد نفسه فإذا بطل هذان الأمران وبان استحالتهما تعين القسم الثالث، وهو أن الله هو الذي خلقهم، وإذا تعين ذلك، علم أن الله هو المعبود وحده الذي لا تنبغي العبادة ولا تصلح إلا له تعالى)[1].

تنبيه:

العقل يدعو للتوحيد وحسنه، ويستقبح الشرك، لكنه ليس حجة مستقلة على تعذيب من مات على غير التوحيد وهكذا الفطرة والميثاق لا يقع بها التكليف، فالحجة التي يعذب تاركها هي ما جاء به الرسل.

أهل الفترة:

قال ابن القيم رحمه الله في أهل الفترة ومن في حكمهم ممن لم تقم عليه الحجة الرسالية: (هؤلاء لا يحكم لهم بكفر ولا إيمان فإن الكفر هو جحود ما جاء به الرسول، فشرط تحققه بلوغ الرسالة، والإيمان هو تصديق الرسول فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، وهذا أيضا مشروط ببلوغ الرسالة، ويلزم من انتفاء أحدهما وجود الآخر إلا بعد قيام سببه، فلما لم يكن هؤلاء في الدنيا كفارا ولا مؤمنين كان لهم في الآخرة حكم آخر غير حكم الفريقين.

فإن قيل فأنتم تحكمون لهم بأحكام الكفار في الدنيا من التوارث والولاية والمناكحة قيل إنما نحكم لهم بذلك في أحكام الدنيا لا في الثواب والعقاب كما تقدم بيانه.

الوجه الثاني: سلمنا أنهم كفار لكن انتفاء العذاب عنهم لانتفاء شرطه وهو قيام الحجة عليهم فإن الله لا يعذب إلا من قامت عليه حجته)[2].

1 - تفسير السعدي 7/195-196.

2 - طريق الهجرتين وباب السعادتين ص 387.

4. اقتران وصفي الشرك والجهل

قال الشوكاني رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ﴾[1]، (إن استجارك أحد من المشركين الذين أمرت بقاتالهم فأجره أي: كن جارا له مؤمنا محاميا ﴿ حتى يسمع كلام الله ﴾ منك ويتدبره حق تدبره ويقف على حقيقة ما تدعو إليه ﴿ ثم أبلغه مأمنه ﴾ أي إلى الدار التي يأمن فيها بعد أن يسمع كلام الله إن لم يسلم. ثم بعد أن تبلغه مأمنه، قاتله فقد خرج من جوارك ورجع إلى ما كان عليه من إباحة دمه، ووجوب قتله حيث يوجد والإشارة بقوله (ذلك) إلى ما تقدم من الإجازة وما بعده (بأنهم قوم لا يعلمون) أي بسبب فقدانهم للعلم النافع. المميز بين الخير والشر في الحال والمآل)[2]. ومما لا يخفى أن وصف الشرك يثبت قبل قيام الحجة الرسالية، والقرآن حافل بذلك.

قال ابن تيمية (اسم الشرك يثبت قبل الرسالة، لأنه يشرك بربه ويعدل به)[3].

قال ابن القيم رحمه الله عن " **طبقة المقلدين وجهال الكفرة وأتباعهم وحميرهم الذين هم تبع لهم** " (وقد اتفقت الأمة على أن هذه الطبقة كفار وإن كانوا جهالا مقدلين لرؤسائهم وأئمتهم) إلى أن قال (والإسلام هو توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له والإيمان بالله وبرسوله واتباعه فيما جاء به فما لم يأت العبد بهذا فليس بمسلم، وإن لم يكن كافرا معاندا فهو كافر جاهل)[4].

وقال ابن تيمية (وأعظم من ذلك أن يقول اغفر لي وتب علي كما يفعله طائفة من الجهال المشركين)[5].

---

1 – التوبة الآية 6.

2 – فتح القدير الطبعة الأولى في مجلد واحد ص 686.

3 – الفتاوي 38/20.

4 – طريق الهجرتين ص 414.

5 – الفتاوى 351/1.

وقال أيضا (وأتباع الهوى درجات: فمنهم المشركون والذين يعبدون من دون الله ما يستحسنون بلا علم ولا برهان)[1]. أي على جهل. وقال رحمه الله (فإن باب جحود الحق ومعاندته غير باب جهله والعمى عنه والكفار فيهم هذا وفيهم هذا)[2].

وقال رحمه الله في شرك القبوريين الذين يقولون لجهلهم إن المسجد بني تبعا للقبر (فمن ظن هذا في مسجد نبينا صلى الله عليه وسلم فهو من أضل الناس وأجهلهم بدين الإسلام وأجهلهم بأحوال الرسول وأصحابه وسيرته وأقواله وأفعاله. وهذا محتاج إلى أن يتعلم ما جهله من دين الإسلام حتى يدخل في الإسلام ولا يأخذ بعض الإسلام ويترك بعضه)[3].

- **شرك العبادة لا يقع إلا مع الجهل**

قال عبد الله بن عبد الرحمن أبو بطين في كون الشرك لا يقع إلا مع الجهل:

(لأنه من المعلوم أنه إذا كان إنسان يقر برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ويؤمن بالقرآن ويسمع ما ذكر الله سبحانه في كتابه من تعظيم أمر الشرك بأنه لا يغفره وأن صاحبه مخلد في النار ثم يقدم عليه وهو يعرف أنه شرك هذا مما لا يفعله عاقل .وإنما يقع فيه من جهل أنه شرك)[4].

وإذا كنت تدرك أن الإنسان لا يتقرب إلى الله بعمل يعتقد بطلانه، علمت أن المشرك الذي يزعم التقرب إلى الله بعمله الشركي لن يكون إلا جاهلا، وهذا يلزم الخصوم القول بأن الكفر لا يكون إلا بالعناد. وقال البغوي في قوله تعالى: ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾[5] : (والسفاهة الجهل وضعف الرأي وكل سفيه جاهل وذلك أن من عبد غير الله فقد جهل نفسه لأنه لم يعرف أن الله خلقها)[6].

- **لا عذاب إلا بعد قيام الحجة الرسالية**

---

1 - الفتاوي 592/10.

2 - الفتاوي 345/11.

3 - الفتاوي 254/27.

4 - الدرر السنية 394/10.

5 - البقرة الآية 131.

6 - تفسير البغوي في مجلد واحد ، ص 66.

قال ابن تيمية (فلا ينجو من عذاب الله إلا من أخلص لله دينه وعبادته ودعاه مخلصا له الدين ومن لم يشرك به ولم يعبده فهو معطل عن عبادته وعبادة غيره كفرعون وأمثاله فهو أسوأ حالا من المشرك، فلا بد من عبادة الله وحده وهو واجب على كل أحد فلا يسقط عن أحد البتة. وهو الإسلام العام الذي لا يقبل الله دينا غيره، ولكن لا يعذب الله أحدا حتى يبعث إليه رسولا وكما أنه لا يعذبه فلا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة مؤمنة[1]. ولا يدخلها مشرك ولا مستكبر عن عبادة ربه فمن لم تبلغه الدعوة في الدنيا امتحن في الآخرة ولا يدخل النار إلا من اتبع الشيطان فمن لا ذنب له لا يدخل النار ولا يعذب الله بالنار أحدا إلا بعد أن يبعث إليه رسولا فمن لم تبلغه دعوة رسول إليه: كالصغير والمجنون والميت في الفترة المحضة فهذا يمتحن في الآخرة كما جاءت بذلك الآثار)[2].

- **نفي العذاب قبل قيام الحجة ليس نفيا للكفر والضلال**

يقول ابن تيمية رحمه الله (فأهل الهدى والفلاح هم المتبعون للأنبياء وهم المسلمون المؤمنون في كل زمان ومكان وأهل العذاب والضلال هم المكذبون للأنبياء. يبقى أهل الجاهلية الذين لم يصل إليهم ما جاءت به الأنبياء فهؤلاء في ضلال وجهل وشر وشرك، لكن الله يقول: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾[3]، وقال: ﴿رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما﴾[4] وقال: ﴿وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون﴾[5]، فهؤلاء لا يهلكهم الله ولا يعذبهم حتى يرسل إليهم رسولا وقد رويت آثار متعددة في أن من لم تبلغه الرسالة في الدنيا فإنه يبعث إليه رسول يوم القيامة في عرصات القيامة)[6].

- **نفي الاسم الواحد أو إثباته بحسب الأحكام المتعلقة به**

---

1 - رواه البخاري في الجهاد (3062) ومسلم في الإيمان (111)

2 - الفتاوى 477/14.

3 - الإسراء الآية 15.

4 - النساء الآية 165.

5 - القصص الآية 59.

6 - الفتاوي 307/17-308.

قال شيخ الإسلام: (وجماع الأمر أن الاسم الواحد ينفى ويثبت بحسب الأحكام المتعلقة به، فلا يجب إذا ثبت أو نفي في حكم أن يكون كذلك في سائر الأحكام وهذا في كلام العرب وسائر الأمم، لأن المعنى مفهوم.

مثال ذلك المنافقون قد يجعلون من المؤمنين في موضع وفي موضع آخر يقال "ماهم منهم". قال تعالى: ﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا ﴾ فهناك جعل هؤلاء المنافقين الخائفين من العدو الناكلين عن الجهاد الناهين لغيرهم الذامين للمؤمنين منهم، وقال في آية أخرى ﴿ ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون ﴾[1]. وهؤلاء ذنبهم أخف فإنهم لم يؤذوا المؤمنين لا بنهب ولا سلق بألسنة حداد ولكن حلفوا بالله أنهم من المؤمنين في الباطن بقلوبهم، وإلا فقد علم المؤمنون أنهم منهم في الظاهر فكذبهم الله وقال ﴿ وما هم منكم ﴾ وهناك قال ﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم ﴾. فالخطاب لمن كان في الظاهر مسلما مؤمنا وليس مؤمنا، لأن منكم من هو بهذه الصفة وليس مؤمنا، بل أحبط الله عمله فهو منكم في الظاهر لا الباطن)[2].

- **الكفر المعذب عليه والكفر الذي لا يعذب عليه إلا بعد قيام الحجة**

قال ابن تيمية (فإن حال الكافر لا تخلو من أن يتصور الرسالة أو لا، فإن لم يتصور فهو في غفلة عنها وعدم إيمان كما قال تعالى: ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾[3] وقال: ﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾[4] .

لكن الغفلة المحضة لا تكون إلا لمن لم تبلغه الرسالة، والكفر المعذب عليه لا يكون إلا بعد بلوغ الرسالة...فكل مكذب لما جاءت به الرسل فهو كافر، وليس كل كافر مكذبا، بل قد يكون مرتابا إن كان ناظرا فيه، أو معرضا عنه بعد أن لم يكن ناظرا فيه، وقد يكون غافلا عنه لم يتصوره بحال، لكن عقوبة هذا موقوفة على تبليغ المرسل إليه)[5]. وقال (والكفر بعد قيام الحجة موجب للعذاب وقبل ذلك ينقص النعمة ولا يزيد، مع أنه لا بد من إرسال

1 - التوبة الآية 56.
2 - الفتاوي 418/7.
3 - الكهف الآية 28.
4 - الأعراف الآية 136.
5 - الفتاوي 78/2-79.

رسول يستحق معه النعيم أو العذاب فإنه ما ثم دار إلا الجنة أو النار)[1]. فمن هنا تدرك أن العلماء ينفون الكفر عن المتلبس به ويريدون بذلك الكفر المعذب عليه، فيقولون لا نكفره والحقيقة الأصلية باقية، وهي أنه كافر لكن الأحكام المترتبة على كفره إنما هي متعلقة بإقامة الحجة عليه فيثبت الاسم الواحد أو ينتفي تبعا للأحكام، وإذا علمت هذا نجوت بإذن الله من سوء فهم كلام العلماء والتباسه.

1 - الفتاوي 16/252-253.

فصل

تقسيم الدين إلى أصول وفروع وعلاقته بإجراء الحكم على المعين

تقسيم الدين

بيان ما يسع الجهل فيه من أمور الدين

بيان ما لا يسع الجهل فيه من أمور الدين

الإتفاق في الأصول

إجراء الحكم على المعين

المسائل الظاهرة والمسائل الخفية

تقسيم الدين

قال الإمام محمد بن جرير الطبري – رحمه الله –: (القول في المعاني التي تدرك حقائق المعلومات من أمور الدين، وما يسع الجهل به منه وما لا يسع ذلك فيه، وما يعذر بالخطإ فيه المجتهد الطالب، وما لا يعذر بذلك فيه: اعلموا – رحمكم الله – أن كل معلوم للخلق من أمر الدين والدنيا أن تخرج[1] من أحد معنيين.

(أ) من أن يكون: إما معلوما لهم بإدراك حواسهم إياه.
(ب) وإما معلوما بالاستدلال عليه بما أدركته حواسهم.

ثم لم يعد جميع أمور الذي امتحن الله به عباده معنيين: أحدهما: توحيد الله وعدله والآخر: شرائعه التي شرعها لخلقه من حلال وحرام وأقضية وأحكام.

(أ) فأما توحيده وعدله: فمدركة حقيقة علمه استدلالا بما أدركته الحواس.
(ب) وأما شرائعه فمدركة حقيقة علم بعضها حسا بالسمع وعلم بعضها استدلالا بما أدركته حاسة السمع.

ثم القول فيما أدركت حقيقة علمه منه استدلالا على وجهين:

– أحدهما: معذور فيه بالخطإ والمخطئ مأجور فيه على الاجتهاد والفحص والطلب كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من اجتهد فأصاب فله أجران ومن اجتهد فأخطأ فله أجر)[2].

وذلك الخطأ فيما كانت الأدلة على الصحيح من القول فيه مختلفة غير مؤتلفة، والأصول في الدلالة عليه مفترقة غير متفقة. وإن كان لا يخلو من دليل على الصحيح من القول فيه. فميز بينه وبين السقيم منه، غير أنه يغمض بعضه غموضا يخفى على كثير من طلابه ويلتبس على كثير من بغاته.

– والآخر منهما غير معذور بالخطإ فيه مكلف قد بلغ حد الأمر والنهي ومكفر بالجهل به الجاهل وذلك ما كانت الأدلة الدالة على صحته متفقة غير مفترقة ومؤتلفة غير

1 – قال محقق " التبصير" : (هكذا في الأصل ولعل الصواب لا يخرج من أحد..).
2 – البخاري (6919) ومسلم (1716).

مختلفة وهي مع ذلك ظاهرة للحواس)[1]. فانظر رعاك الله ووفقك لما يحبه ويرضاه- إلى هذا التقسيم الدقيق والتفصيل البين من هذا الإمام المحدث شيخ المفسرين، وإن مما تفيض له المآقي أن تقسيم الدين وإجراء الأحكام تبعا لتقسيمه إلى أصول وفروع، وجد بين الدعاة من يقول ببدعيته دون برهان، فتقول على الله بغير علم، رغم ما ابتلي به من سوء الفهم.

بيان ما يسع الجهل فيه من أمور الدين

ثم يزيد الأمر وضوحا بقوله رحمه الله في ذكر ما يسع الإنسان جهله من أمور الدين:

(وأما ما أدركت حقيقة علمه منه حسا فغير لازم فرضه أحدا إلا بعد وقوعه تحت حسه، فأما وهو[2] واقع تحت حسه فلا سبيل له إلى العلم به، وإذا لم تكن له إلى العلم به سبيل، لم يجز تكليفه فرض العمل به، مع ارتفاع العلم به. وذلك أنه من لم ينته إليه الخبر بأن الله تعالى ذكره بعث رسولا يأمر الناس بإقامة خمس صلوات كل يوم وليلة، لم يجز أن يكون معذبا على تركه إقامة الصلوات الخمس، لأن ذلك من الأمر الذي لا يدرك إلا بالسماع ومن لم يسمع ذلك ولم يبلغه فلم تلزمه الحجة به، وإنما يلزم فرضه من ثبتت عليه به الحجة)[3].

بيان ما لا يسع الجهل فيه من أمور الدين

ثم قال رحمه الله في نص واضح وضوح شمس النهار على عدم العذر بالجهل في التوحيد : (فأما الذي لا يجوز الجهل به من دين الله لمن كان في قلبه من أهل التكليف لوجود الأدلة متفقة في الدلالة عليه غير مختلفة، ظاهرة للحس غير خفية، فتوحيد الله تعالى ذكره والعلم بأسمائه وصفاته وعدله، وذلك أن كل من بلغ حد التكليف من أهل الصحة والسلامة فلن يعدم دليلا دالا وبرهانا واضحا يدله على وحدانية ربه جل ثناؤه، ويوضح له حقيقة صحة ذلك ولذلك لم يعذر الله جل ذكره أحدا كان بالصفة التي وصفت بالجهل وبأسمائه وألحقه إن مات على الجهل به بمنازل أهل العناد فيه تعالى ذكره والخلاف عليه بعد العلم به، وبربوبيته في أحكام الدنيا وعذاب الآخرة فقال جل ثناؤه: ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا * الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا *

1 - التبصير في معالم الدين لابن جرير الطبري ص 112-113.

2 - قال محقق التبصير : (لعله وهو غير واقع).

3 - التبصير في معالم الدين 115-116.

أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ﴾[1]، فسوى جل ثناؤه بين هذا العامل في غير ما يرضيه على حسبانه أنه في علمه عامل بما يرضيه، في تسميته في الدنيا بأسماء أعدائه المعاندين له، الجاحدين ربوبيته مع علمهم بأنه ربهم.

وألحقه بهم في الآخرة في العقاب والعذاب، وذلك لما وصفنا من استواء المجتهد المخطئ في وحدانيته وأسمائه وصفاته وعدله وحال المعاند في ذلك في ظهور الأدلة الدالة المتفقة غير المفترقة لحواسهما من الأدلة والحجج وجبت التسوية بينهما في العذاب والعقاب وخالف حكم ذلك حكم الجاهل بالشرائع)[2].

الإتفاق في الأصول

قال شيخ الإسلام (فالرسل متفقون في الدين الجامع للأصول الاعتقادية والعملية فالاعتقادية كالإيمان بالله وبرسله وباليوم الآخر والعملية كالأعمال العامة المذكورة في الأنعام والأعراف)[3].

والعلماء متفقون على أن الحق في أصول الدين واحد من أخطأه فهو آثم سواء في ذلك ما كان عرضة للتأويل مع غيره من الأصول.

وقد مر بنا كلام ابن جرير فيمن أخطأ في توحيد الله وأنه لا يعذر وسيأتي كلامه لاحقا في من أخطأ في الأصول التي هي عرضة للتأويل. وأسوق هنا ما ذكره القاضي عياض أثناء رده على العنبري قوله في تصويب أقوال المجتهدين في أصول الدين التي هي عرضة للتأويل قال القاضي عياض (وفارق في ذلك فرق الأمة إذ أجمعوا سواه على أن الحق في أصول الدين واحد والمخطئ فيه آثم عاص فاسق وإنما الخلاف في تكفيره)[4].

ولذلك كان المخالف في هذه الأصول مبتدعا ليس كالمخالف في الفروع، قال البغوي: (عند كلامه عن هجران أهل البدع (هذا الهجران والتبري والمعاداة لأهل البدع المخالفين في

1 - الكهف الآية 103-105.

2 - التبصير في معالم الدين ص 116-118.

3 - الفتاوي 158/15.

4 - الشفا بتعريف حقوق المصطفى بشرح نور الدين القاري 395/5.

الأصول أما الاختلاف في الفروع بين العلماء فاختلاف رحمة أراد الله ألا يكون على المؤمنين حرج في الدين فذلك لا يوجب الهجران والقطيعة)[1]. وسيأتي مزيد بيان لهذه المسألة في الكلام عن التأويل بإذن الله.

الدين أصول وفروع

وهذا لا ينكره إلا جاهل أو مكابر ولا يظهر غيره إلا متأول لم يعرف الجهال مراده، فراموا التفنيد وسلكوا سبل التقليد.

وقد مر بنا تقسيم ابن جرير رحمه الله وكذلك فعل العلماء قاطبة، وهل كان ليعرف مجال الاجتهاد دون تقسيم الدين إلى أصول وفروع؟

وهل تمكن مساواة ما لا ينعقد الإيمان إلا به بما هو من مكملاته؟ وهل يخلو كتاب من كتب أصول الفقه من تقسيم الدين إلى هذين القسمين؟

وأصل الإيمان التوحيد وأصل التوحيد عبادة الله وحده والكفر بما يعبد من دونه وضابطه أنه هو الذي يدخل الإنسان به الإسلام وإن جهل غيره الذي لا يدخل الإنسان الإسلام بالإتيان به حتى يحقق هذا الأصل الذي هو أصل الأصول.

قال شيخ الإسلام (التوحيد أصل الإيمان وهو الكلام الفارق بين أهل الجنة وأهل النار وهو ثمن الجنة ولا يصح إسلام أحد إلا به)[2]. وقال رحمه الله (والدين القائم بالقلب من الإيمان علما وحالا هو الأصل والأعمال الظاهرة هي الفروع وهي كمال الإيمان فالدين أول ما يبنى من أصول ويكمل بفروعه كما أنزل الله بمكة أصوله من التوحيد والأمثال التي هي المقاييس العقلية والقصص والوعد والوعيد ثم أنزل بالمدينة لما صار له قوة فروعه الظاهرة من الجمعة والجماعة.. فأصوله تمد فروعه وتثبتها وفروعه تكمل أصوله وتحفظها)[3].

لا يدعى إلى الفروع من لم يقر بالأصل

1 - شرح السنة للبغوي 229/1.

2 - الفتاوي 235/24.

3 - الفتاوي 355/10.

قال ابن تيمية (**وأصل الإسلام** أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فمن طلب بعبادته الرياء والسمعة فلم يحقق شهادة ألا إله إلا الله ومن خرج عما أمر به الرسول من الشريعة وتعبد بالبدعة فلم يحقق شهادة أن محمدا رسول الله.

وإنما يحقق هذين الأصلين من لم يعبد إلا الله ولم يخرج عن شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي بلغها عن الله)[1].

وقال (فالدعوة إلى الله تكون بدعوة العبد إلى دينه، **وأصل ذلك عبادته وحده لا شريك له** كما بعث الله بذلك رسله وأنزل كتبه) إلى أن قال (فالرسل متفقون في الدين الجامع للأصول الاعتقادية والعملية فالاعتقادية كالإيمان بالله وبرسله وباليوم الآخر والعملية كالأعمال العامة المذكورة في الأنعام والأعراف) إلى أن قال (ولهذا كان الخطاب في السور المكية (يأيها الناس) لعموم الدعوة إلى الأصول، **إذ لا يدعى إلى الفروع من لا يقر بالأصل**)[2].

فانظر يا أخا الإيمان بعين الإنصاف كلامه عن أصول الدين وعن أصل هذه الأصول الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له والذي لا يدعى إلى غيره من الأصول قبل تحقيقه ناهيك عن الفروع.

ومما يؤكد هذا حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث معاذ بن جبل إلى اليمن وقال له (إنك ستأتي قوما أهل كتاب فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فإن هم أطاعوا لذلك.. الحديث)[3].

يقول عبد الرحمن السعدي في توحيد العبادة (أعظم الأصول التي يقررها القرآن ويبرهن عليها توحيد الألوهية والعبادة وهذا الأصل العظيم أعظم الأصول على الإطلاق وأكملها وأفضلها وأوجبها وألزمها لصالح الإنسانية)[4].

وقال أيضا (وهو الذي خلق الله الخلق لأجله وشرع الجهاد لإقامته وجعل الثواب الدنيوي والأخروي لمن قام به وحققه والعقاب لمن تركه، وبه يحصل الفرق بين أهل السعادة

---

1 - الفتاوي 617/11.

2 - الفتاوي 158/15-160.

3 - أخرجه البخاري في الزكاة (1996) ومسلم قي الإيمان (29)

4 - القواعد الحسان 192.

القائمين به، وأهل الشقاوة التاركين له، فعلى المرء أن يبذل جهده في معرفته وتحقيقه والتحقق به ويعرف حده وتفسيره، ويعرف حكمه ومرتبته ويعرف آثاره ومقتضياته وشواهده وأدلته وما يقويه وينميه وما ينقضه أو ينقصه لأنه الأصل الأصيل لا تصح الأصول إلا به فكيف بالفروع؟)[1].

خطأ من زعم أن تقسيم الدين إلى أصول وفروع بدعة

وقد تمسك بعض من رام التقليد ولم يعط اهتماما للتحقيق بمقالة مقتطعة لشيخ الإسلام في رده على الفرق الضالة التي بنت مذاهبها على أصول وفروع منطلقة في ذلك من العقل ورتبت على خلاف ذلك أحكاما مختلفة فذكر شيخ الإسلام أن ذلك التقسيم على ذلك الوجه بدعة ولا ريب في ذلك، أما كون الدين الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من عند الله لا ينقسم إلى أصول وفروع فهذا لا ينطق به من ذاق طعم العلم أو أوتي أقل حظ من الفهم، وقد تكلم شيخ الإسلام عن الأصول والفروع التي وضع أهل الأهواء مخالفين ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فما من فرقة إلا ولها أصول توقف إسلام العبد على تحقيقها، وفروع هي دون ذلك، ومن أخذ كلام شيخ الإسلام أوله وآخره أدرك ذلك.

وقد رد شيخ الإسلام على سؤال جاء فيه: هل يجوز الخوض فيما تكلم الناس فيه من مسائل في أصول الدين لم ينقل عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فيها كلام أم لا ؟

فإن قيل بالجواز: فما هو ؟ فأجاب رحمه الله:

(الحمد لله رب العالمين (أما المسألة الأولى) فقول السائل هل يجوز الخوض فيما تكلم الناس فيه من مسائل في أصول الدين لم ينقل عن سيدنا محمد فيها كلام أم لا؟ سؤال ورد بحسب ما عهد من الأوضاع المبتدعة الباطلة.

فإن المسائل التي هي من أصول الدين التي تستحق أن تسمى أصول الدين أعني: الدين الذي أرسل الله به رسوله وأنزل به كتابه لا يجوز أن يقال لم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم فيها كلام، بل هذا كلام متناقض في نفسه، إذ كونها من أصول الدين يوجب أن تكون من أهم أمور الدين، وأنها مما يحتاج إليه في الدين.

1 – الحق الواضح المبين في توحيد الأنبياء والمرسلين 57.

ثم نفي نقل الكلام فيها عن الرسول صلى الله عليه وسلم يوجب أحد أمرين:

إما أن الرسول صلى الله عليه وسلم أهمل الأمور المهمة التي يحتاج الدين إليها فلم يبينها أو أنه بينها فلم تنقلها الأمة، وكلا هذين باطل قطعا، ومن أعظم مطاعن المنافقين في الدين، وإنما يظن هذا وأمثاله من هو جاهل بحقائق ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم أو جاهل بما يعقله الناس بقلوبهم، أو جاهل بهما جميعا. فإن جهله بالأول يوجب عدم علمه بما اشتمل عليه ذلك من أصول الدين وفروعه وجهله بالثاني يوجب أن يدخل في الحقائق المعقولة ما يسميه هو وأشكاله عقليات، وإنما هي جهليات، وجهله بالأمرين يوجب أن يظن من أصول الدين ما ليس منها من المسائل والوسائل الباطلة، وأن يظن عدم بيان الرسول لما ينبغي أن يعتقد في ذلك كما هو الواقع لطوائف من أصناف الناس حذاقهم فضلا عن عامتهم.. فكل ما يحتاج الناس إلى معرفته واعتقاده والتصديق به من هذه المسائل فقد بينه الله ورسوله بيانا شافيا قاطعا للعذر، إذ هذا من أعظم ما بلغه الرسول البلاغ المبين، وبينه للناس وهو من أعظم ما أقام الله به الحجة على عباده فيه بالرسل الذين بينوه وبلغوه.

وإنما الغرض التنبيه على أن في القرآن والحكمة النبوية عامة أصول الدين من المسائل والدلائل التي تستحق أن تكون أصول الدين. وأما ما يدخله بعض الناس في هذا المسمى من الباطل فليس ذلك من أصول الدين وإن أدخله فيه مثل المسائل والدلائل الفاسدة، مثل نفي الصفات والقدر ونحو ذلك من المسائل)[1].

إجراء الحكم على المعين

❖ خطر التكفير بغير حق

إن مما لا شك فيه أن من أعظم محارم اللسان إطلاق التكفير بغير حق، فتكفير المسلم كقتله، ولا يقف الأمر عند عظم إثم صاحبه بل يترتب عليه من المخاطر ويفتح من أبواب الفتن ما يجعل المؤمن لا يقدم على التكفير مطلقا إلا بالأدلة القاطعة والحجج الساطعة.

قال العلامة الشوكاني رحمه الله تعالى (اعلم أن الحكم على الرجل المسلم بخروجه من دين الإسلام ودخوله في الكفر لا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقدم عليه إلا ببرهان أوضح من شمس النهار، فإنه قد ثبت في الأحاديث الصحيحة المروية من طريق

1 - الفتاوي 3/293-303 باختصار.

جماعة من الصحابة أن من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما، هكذا في صحيح (البخاري) وفي لفظ آخر في الصحيحين[1] وغيرهما (من دعا رجلا بالكفر أو قال عدو الله وليس كذلك، إلا حار عليه) أي رجع وفي لفظ في الصحيح (فقد كفر أحدهما) ففي هذه الأحاديث وما ورد موردها أعظم زاجر وأكبر واعظ عن التسرع في التكفير)[2].

❖ خطأ من يحذر من التكفير مطلقا

قال ابن القيم رحمه الله أثناء ذكره لبعض ما في غزوة الفتح من الفقه (وفيها أن الرجل إذا نسب المسلم إلى النفاق والكفر متأولا وغضبا لله ورسوله ودينه لا لهواه وحظه فإنه لا يكفر بذلك. **بل لا يأثم، بل يثاب على نيته وقصده.** وهذا بخلاف أهل الأهواء والبدع، فإنهم يكفرون ويبدعون لمخالفة أهوائهم وبدعهم ونحلهم وهم أولى بذلك ممن كفروه وبدعوه)[3].

وهذا مما يبطل قول المنفرين من التكفير مطلقا، حتى وإن كان برهان من حكم بالكفر كشمس النهار، فإنهم يقولون وما تجنون من التكفير وماذا يترتب على ذلك؟

قال عبد الله بن عبد الرحمن أبو بطين رحمه الله تعالى: (ومن العجب أن بعض الناس إذا سمع من يتكلم في معنى هذه الكلمة نفيا وإثباتا عاب ذلك، وقال: لسنا مكلفين بالناس والقول فيهم، فيقال له بل أنت مكلف بمعرفة التوحيد الذي خلق الله الجن والإنس لأجله، وأرسل جميع الرسل يدعون إليه، ومعرفة ضده وهو الشرك الذي لا يغفر ولا عذر لمكلف في الجهل بذلك، ولا يجوز فيه التقليد لأنه أصل الأصول فمن لم يعرف المعروف وينكر المنكر فهو هالك، لا سيما أعظم المعروف وهو التوحيد وأكبر المنكرات وهو الشرك)[4].

فحسب المرء أن يتحرى الحق ويخلص ويصدق في إجراء الحكم على من يستحقه فإن أصاب الحق فبها ونعمت وإن أخطأه فهو معذور، بل مأجور على قدر نيته وقصده، كما مر عن ابن القيم رحمه الله.

❖ الاحتياط في المختلف فيه

---

1 _ البخاري (6045) ومسلم (61).

2 – السيل الجرار– الطبعة الأولى في مجلد واحد– ص 978.

3 – زاد المعاد 423/3.

4 – الانتصار لحزب الله الموحدين ص 11، فتاوي الأئمة النجدية 183/3.

قال العلامة أبو بطين : (فما تنازع العلماء في كونه كفرا فالاحتياط في الدين التوقف وعدم الإقدام ما لم يكن في المسألة نص صريح عن المعصوم ص.

وقد استزل الشيطان أكثر الناس في هذه المسألة، فقصر بطائفة فحكموا بإسلام من دلت نصوص الكتاب والسنة والإجماع على كفره، وتعدى بآخرين فكفروا من حكم الكتاب والسنة والإجماع بأنه مسلم)[1].

❖ كفر النوع وكفر المعين

وهذه أهم مسألة في هذا الموضوع وحولها وقع النزاع، فقد أخطأت طائفة فقالت إن كفر النوع لا يلزم منه تكفير المعين إطلاقا، وأخطأت أخرى فقالت إن كل من وقع في الكفر فهو كافر بعينه أيا كان نوع كفره. والحق التفصيل المبني على ما ذكرنا في المقدمات فيما يتعلق بأصول الدين وفروعه.

فإن من نقض أصل الدين بجهل أو تأويل أو اغترف المسائل الكفرية الظاهرة لا يتوقف في تكفيره بعينه، بخلاف ما دون ذلك من فروع الدين والمسائل الخفية فلا يكفر المعين فيه حتى تتوفر ثلاثة أمور:

- أن يكون القول أو الفعل كفرا،
- أن يثبت أن المعين فعله،
- أن تثبت شروط التكفير في حقه وتنتفي موانعه.

قال ابن تيمية رحمه الله (وهكذا الأقوال التي يكفر قائلها، قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق، وقد تكون عنده ولم تثبت عنده أو لم يتمكن من فهمها وقد يكون عرضت له شبهات يعذره الله بها، فمن كان من المؤمنين مجتهدا في طلب الحق وأخطأ فإن الله يغفر له خطأه كائنا ما كان)[2].

وتأمل قوله (فمن كان من المؤمنين مجتهدا في طلب الحق..) لتدرك أنه يتكلم عن المخطئين من أهل القبلة، وسيأتي بيان ذلك عند الكلام عن رخصة الخطإ لأهل الإيمان.

---

1 - الدرر السنية 375/10.

2 - الفتاوي 346/23.

وقال رحمه الله إنه إذا قيل (من قال كذا فهو كافر، اعتقد المستمع لأن هذا اللفظ شامل لكل من قاله، ولم يتدبروا أن التكفير له شروط وموانع قد تنتفي في حق المعين، وأن تكفير المطلق لا يستلزم تكفير المعين إلا إذا وجدت الشروط وانتفت الموانع، يبين هذا أن الإمام أحمد وعامة الأئمة الذين أطلقوا هذه العمومات، لم يكفروا من تكلم بهذا الكلام بعينه..)[1].

وهذا الكلام منه رحمه الله تمسك به قوم لم يفهموا مراده به، فبالغوا في اعتبار شروط وموانع التكفير، ولم يقيدوها بما قيدها به الشيخ رحمه الله.

وقد ذكر رحمه الله عين المسألة التي يتكلم عنها ألا وهي مسألة خلق القرآن وما في معناها من الأصول التي هي عرضة للتأويل فهذه أمور قد تخفى فلا يكفر صاحبها إلا بعد إزالة شبهته وإقامة الحجة عليه.

ومما تمسكوا به: قول شيخ الإسلام:

(وليس لأحد أن يكفر أحدا من المسلمين وإن أخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجة وتبين له المحجة، ومن ثبت إسلامه بيقين لم يزل ذلك عنه بالشك، بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة)[2].

فتراهم لا يقيدون هذا القول عند الاحتجاج على خصومهم ومع ذلك ترى بعضهم يقول بكفر ساب الله سبحانه وتعالى وساب النبي صلى الله عليه وسلم قبل إقامة الحجة عليه وإزالة شبهته إن كان انتقص من قدر النبي صلى الله عليه وسلم لشبهة عنده أو جهل دفعه إليه خلافا لأصلهم الذي تمسك به الألباني وغيره فعذروه بجهله وسوء تربيته.

وقد قال شيخ الإسلام في غير موضع إنه لا يشترط في إثبات الكفر قصده بخلاف التوقف عن التكفير حتى تقوم الحجة وتزول الشبهة، الذي لازمه ألا يكفر أحد إلا إذا قصد الكفر عنادا.

1 - الفتاوي 12/487-488.

2 - الفتاوي 12/250.

فما الذي جعل القوم يطلقون مثل هذه الأقوال ولا يذكرون لها قيدا ؟ وما الذي جعل بعضهم يستثني أمورا كسب الله ورسوله والسجود لصنم أو شمس.. إلا أن ذلك نقض لأصل الدين.

المسائل الظاهرة والمسائل الخفية

يقول محمد بن عبد الوهاب في رسالة إلى أحمد بن عبد الكريم في الرد على شبهته، وإزالة إشكاله في كلام شيخ الإسلام عن تكفير المعين:

(وإذا كان كلام شيخ الإسلام ليس في الشرك والردة، بل في المسائل الجزئيات سواء كانت في الأصول أو الفروع، ومعلوم أنهم يذكرون في كتبهم في مسائل الصفات أو مسألة القرآن أو مسألة الاستواء أو غير ذلك، مذهب السلف ويذكرون أنه الذي أمر الله به ورسوله والذي درج عليه هو وأصحابه، ثم يذكرون مذهب الأشعري أو غيره ويرجحونه ويسبون من خالفه. فلو قدرنا أنه لم تقم الحجة على غالبهم قامت على هذا المعين الذي يحكي المذهبين، مذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه ...فكلام الشيخ في هذا النوع، يقول: إن السلف كفروا النوع وأما المعين فإن عرف الحق وخالفه كفر بعينه وإلا لم يكفر)[1].

ثم ذكر من كلام شيخ الإسلام ما يزيد الأمر وضوحا فذكر قوله أثناء كلامه عن المتكلمين والطوائف الضالة: (وهذا إذا كان في المقالات الخفية فقد يقال إنه فيها مخطئ ضال، لم تقم عليه الحجة التي يكفر صاحبها لكن ذلك يقع في طوائف منهم في الأمور الظاهرة التي يعلم المشركون واليهود والنصارى أن محمدا صلى الله عليه وسلم بعث بها، وكفر من خالفها مثل أمره بعبادة الله وحده لا شريك له، ونهيه عن عبادة أحد سواه من النبيين والملائكة وغيرهم، فإن هذا من أظهر شعائر الإسلام.

ثم تجد كثيرا من رؤوسهم وقعوا في هذه الأنواع فكانوا مرتدين وكثير منهم تارة يرتد عن الإسلام ردة صريحة، وتارة يعود إليه مع مرض في قلبه ونفاق والحكاية عنهم في ذلك مشهورة، وقد ذكر ابن قتيبة من ذلك طرفا في أول مختلف الحديث، وأبلغ من ذلك أن منهم من صنف في الردة كما صنف الرازي في عبادة الكواكب وهذه ردة عن الإسلام باتفاق

1 – فتاوي الأئمة النجدية 296/3. وراجع (الدرر السنية 63/10).

المسلمين) أهـ فعلق على هذا الكلام بقوله (فانظر كلامه في التفرقة بين المقالات الخفية وبين ما نحن فيه من كفر المعين)[1].

وقد ساق كلام شيخ الإسلام هذا العلامة عبد الله بن عبد الرحمن أبو بطين في رده على سؤال ورد إليه عن معنى كلام شيخ الإسلام في تكفير المعين فقال فيه (فانظر إلى تفريقه بين المقالات الخفية والأمور الظاهرة، فقال في المقالات الخفية التي هي كفر، قد يقال إنه فيها مخطئ ضال لم تقم عليه الحجة التي يكفر صاحبها ولم يقل ذلك في الأمور الظاهرة، فكلامه ظاهر في الفرق بين الأمور الظاهرة والخفية، فيكفر بالأمور الظاهرة حكمها مطلقا، وبما يصدر منها من مسلم جهلا... ولا يكفر بالأمور الخفية جهلا كالجهل ببعض الصفات)[2].

❖ خطأ في الإطلاق

وبهذه التفرقة يتبين لك الخطأ في إطلاق القول إن فعل الكفر لا يقتضي كفر فاعله، لأن الأمر راجع إلى نوع الكفر، فإذا كان في المسائل الظاهرة فيكفر مطلقا، قال عبد الله وإبراهيم أبناء عبد اللطيف بن عبد الرحمن وسليمان بن سحمان: (وأما قول القائل: نقول بأن القول كفر، ولا نحكم بكفر القائل فإطلاق هذا جهل صرف، لأن هذه العبارة لا تنطبق إلا على المعين ومسألة تكفير المعين مسألة معروفة إذا قال قولا يكون القول به كفرا، فيقال من قال بهذا القول فهو كافر، لكن الشخص المعين إذا قال بذلك لا يحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة التي يكفر بها تاركها.

وهذا في المسائل الخفية التي قد يخفى دليلها على بعض الناس كما في مسائل القدر والإرجاء ونحو ذلك مما قاله أهل الأهواء، فإن بعض أقوالهم تضمن أمورا كفرية من رد أدلة الكتاب والسنة المتواترة، فيكون القول المتضمن لرد بعض النصوص كفرا ولا يحكم على قائله بالكفر لاحتمال وجود مانع كالجهل، وعدم العلم بنقض النص أو بدلالته، فإن الشرائع لا تلزم إلا بعد بلوغها)[3].

1 - فتاوي الأئمة النجدية 3 / 297-298، وراجع (الدرر السنية 10/63-74).

2 - فتاوي الأئمة النجدية 3/315) وراجع (الدرر السنية 10/360-375).

3 - عقيدة الموحدين ص 451، فتاوي الأئمة النجدية 3/301، كشف الشبهتين ص 83.

فصل

موانع التكفير المعتبرة

1. الجهل المعتبر
2. التأويل المعتبر
3. مانع الخطأ
4. مانع الإكراه

1. الجهل المعتبر

1. هدم قاعدة العذر بالجهل
2. الجهل الذي يعذر صاحبه
3. أقسام أهل البدع
4. جهل الصفة
5. هل يعذر الناس اليوم

1. هدم قاعدة العذر بالجهل

أ- كفر الجهل

وقد تقدم أن العلم شرط في تحقيق التوحيد، فكيف يتصور أن يعذر جاهل التوحيد إلا إذا قبلنا التناقض، فمن جهل التوحيد فهو كمن لم يوحد أصلا لأن الشرط يلزم من عدمه العدم.

وكلمة التوحيد لا بد فيها من أمرين لقبولها:

- **العلم بمعناها،**
- **والعمل بمقتضاها.**

فالجاهل بالتوحيد كافر كفر الجهل.

قال ابن القيم رحمه الله (وأما كفر الجهل مع عدم قيام الحجة فهذا الذي نفى الله عنه التعذيب حتى تقوم عليه الحجة)[1].

1 - طريق الهجرتين ص 384.

والكفر أنواع (كفر جهل وتكذيب وكفر جحود، وكفر عناد واستكبار ،كفر نفاق)[1] . وإذا تأملت أحوال المتلبسين بالشرك، وجدت أنهم يكذبون كل من ينهى عما هم عليه من الشرك كالاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله وغيرها، بسبب جهلهم.

إن منهم من يقع في الشرك العظيم وهو يحفظ القرآن ويعرف لغة العرب بل يدرسها ثم يأتي من ينسب للدعوة إلى التوحيد ويبذل ما في وسعه دفاعا عن إسلامه ونبذا لتكفيره حتى تزال شبهته ويعلم بعد جهله.

وقد قال سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا جَاؤُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[2]. و قال سبحانه: ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾[3]. فهؤلاء جهال دفعهم الجهل إلى التكذيب بما لم يحيطوا به علما ولم يعذروا بجهلهم.

ب – آفة أهل النار الجهل

ومن المعلوم أن أهل النار جهال فقد وصفهم الله سبحانه بغاية الجهل ومنتهاه قال سبحانه: ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾[4]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنس لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾[5]. وقد ذكر الله سبحانه شك المشركين فيما جاءهم من عند الله والشاك جاهل قال سبحانه: ﴿ وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾[6]. وقال: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾[7].

---

1 – أعلام الناس المنشورة لاعتقاد الطائفة المنصورة حافظ احمد حكمي ص 93.

2 – النمل الآية 83-84.

3 – يونس الآية 39.

4 – الملك الآية 10.

5 – الأعراف الآية 179.

6 – إبراهيم الآية 9.

7 – هود الآية 110.

ت – من يحسب أنه على حق وهو على باطل: جاهل

يقول سبحانه: ﴿ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾[1]. قال الطبري (**هذه الآية من أوضح الدليل على تكذيب الله جل ثناؤه قول الزاعمين أن الله لا يعذب من عباده إلا من كفر به عنادا بعد علمه بوحدانيته** وبعد تقرر صحة ما عاند ربه تبارك وتعالى عليه من توحيده والإقرار بكتبه ورسله عنده، لأن الله جل ثناؤه قد أخبر عن الذين وصفهم بما وصفهم به من النفاق وخداعهم إياه والمؤمنين أنهم لا يشعرون أنهم مبطلون فيما هم عليه من الباطل مقيمون، وأنهم يخادعون الذي يحسبون أنهم به يخادعون ربهم وأهل الإيمان به مخدوعون ثم أخبر تعالى ذكره أن لهم عذابا أليما بتكذيبهم بما كانوا يكذبون من نبوة نبيه واعتقاد الكفر به، وبما كانوا في زعمهم أنهم مؤمنون وهم على الكفر مصرون)[2].

و قال البغوي: (و ما يشعرون) أي : لا يعلمون أنهم يخدعون أنفسهم وأن وبال خداعهم يعود عليهم)[3].

و قال ابن كثير (وقوله تعالى: ﴿ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي: بإظهارهم ما أظهروه من الإيمان مع إسرارهم الكفر يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بذلك وأن ذلك نافعهم عنده وأنه يروج عليه كما قد يروج على بعض المؤمنين)[4].

قال تعالى: ﴿ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[5].

قال ابن كثير في تفسيره: (قال ابن جرير : **وهذا من أبين الدلالة على خطإ من زعم أن الله لا يعذب أحدا على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها، إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها، فيرتكبها عنادا منه لربه فيها.** لأن ذلك لو كان كذلك، لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضل وهو يحسب أنه مهتد وفريق الهُدى فرق، وقد فرق الله تعالى بين

1 – البقرة الآية 9.

2 – تفسير ابن جرير 240/1.

3 – تفسير البغوي، الطبعة الأولى في مجلد واحد ، ص 17.

4 – تفسير القرآن العظيم لابن كثير 81/1.

5 – الأعراف الآية 30.

أسمائهما وأحكامهما في هذه الآية)[1]. فهذا كلام شيخ المفسرين وصاحب أصح التفاسير، وقال البغوي في تفسيرها : (قوله عز وجل ﴿ فَرِيقًا هَدَى ﴾ أي هداهم الله ﴿ وَفَرِيقًا حَقَّ ﴾ وجب ﴿ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾ أي الإرادة السابقة ﴿ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ فيه دليل على أن الكافر الذي يظن أنه في دينه على الحق والجاحد والمعاند سواء)[2].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾[3].

(روى البخاري عن مصعب قال سألت أبي يعنى سعد بن أبي وقاص عن قول الله: ﴿ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ أهم الحرورية ؟ قال: لا، هم اليهود والنصارى أما اليهود فكذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم وأما النصارى فكفروا بالجنة وقالوا لا طعام فيها ولا شراب والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه وكان سعد رضي الله عنه يسميهم : الفاسقين")[4].

وقال على بن أبي طالب والضحاك وغير واحد هم الحرورية، ومعنى هذا عن على أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم. لا أنها نزلت في هؤلاء على الخصوص ولا هؤلاء بل هي أعم من هذا.

فإن هذه الآية مكية، قبل خطاب اليهود والنصارى وقبل وجود الخوارج بالكلية وإنما هى عامة في كل من عبد غير الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول وهو مخطئ وعمله مردود كما قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ﴾[5]. وقوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء

1 - مختصر تفسير ابن كثير ، محمد أحمد شاكر14/2.
2 - تفسير البغوي ص 460-461.
3 - الكهف 103-104.
4 - البخاري 4728.
5 - الغاشية الآية 2-4.

مَّنثُورًا﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾[2].

وقال في هذه الآية الكريمة ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ ﴾ أي نخبركم ﴿ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ ثم فسرها فقال ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي عملوا أعمالا باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ أي : يعتقدون أنهم على شيء وأنهم مقبولون محبوبون)[3].

ث – آفة الخوارج ظنهم أنهم على حق وهو جهل

قال شيخ الإسلام (قال الإمام أحمد : صح الحديث في الخوارج من عشرة أوجه وهذه العشرة أخرجها مسلم في صحيحه موافقة لأحمد، وروى البخاري منها عدة أوجه، وروى أحاديثهم أهل السنن والمسانيد من وجوه أخر)[4].

وقد ذهب إلى القول بكفرهم إمام المحدثين البخاري و شيخ المفسرين الطبري والإمام ابن العربي والسبكي والرافعي والقرطبي في المفهم وغيرهم[5].

قال البخاري في صحيحه: باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم وقول الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[6].

وكان ابن عمر يراهم شرار خلق الله، وقال إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين[7]، قال الحافظ (قوله: " وكان ابن عمر يراهم شرار خلق الله" وصله الطبري في مسند علي في تهذيب الآثار من طريق بكير بن عبد الله بن الأشج أنه سأل نافعا كيف كان رأي ابن عمر في الحرورية قال كان يراهم شرار خلق الله، انطلقوا إلى آيات

1 – الفرقان الآية 23.

2 – النور الآية 39.

3 – مختصر تفسير ابن كثير 436/2.

4 – الفتاوي 479/7.

5 – راجع فتح الباري ، كتاب الردة، 12/ 295-313.

6 – التوبة الآية 115.

7 – البخاري مع الفتح، طبعة في ثلاثة مجلدات ، 224/3.

الكفار فجعلوها في المؤمنين، قلت وسنده صحيح، وقد ثبت في الحديث الصحيح المرفوع عند مسلم من حديث أبي ذر في وصف الخوارج "هم شرار الخلق والخليقة")[1]. وفي صحيح البخاري (6933) من حديث أبي سعيد في قصة عبد الله بن ذي الخويصرة التميمى لما قال للنبى صلى الله عليه وسلم اعدل يا رسول الله، فقال ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ قال عمر بن الخطاب : دعنى أضرب عنقه، قال دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية... الحديث). وروى البخاري (6934) من حديث سهل بن حنيف أن النبى صلى الله عليه وسلم أهوى بيده قبل العراق وقال " يخرج منه قوم يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية).

ج – الخروج من الدين من غير قصد بسبب الجهل

قال الحافظ ابن حجر بعد ذكر حديث الخوارج (**وفيه أن من المسلمين من يخرج من الدين من غير أن يقصد الخروج منه ومن غير أن يختار دينا على دين الإسلام**، وأن الخوارج شر الفرق المبتدعة من الأمة المحمدية ومن اليهود والنصارى)[2]. وقد نقل رحمه الله عن ابن جرير الطبري أنه قال في تهذيب الآثار بعد أن ساق الأحاديث في الخوارج "فيه الرد على قول من قال لا يخرج أحد من الإسلام من أهل القبلة بعد استحقاقه حكمه إلا بقصد الخروج منه عالما فإنه مبطل لقوله في الحديث (يقولون الحق ويقرأون القرآن ويمرقون من الإسلام ولا يتعلقون منه بشيء)[3]."

ح – الاستخفاف بالنبي صلى الله عليه وسلم عن غير قصد

قال شيخ الإسلام عند كلامه على قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾[4]. قال (..فإذا ثبت أن رفع الصوت فوق صوت النبى صلى الله عليه وسلم والجهر بالقول يخاف منه أن يكفر صاحبه وهو لا يشعر ويحبط عمله بذلك، وأنه مظنة لذلك وسبب فيه، فمن المعلوم أن ذلك لما ينبغي له من التعزير والتوقير والتشريف

1 – فتح الباري 625/3.
2 – الفتح 313/12.
3 – فتح الباري ، 312/12.
4 – الحجرات الآية 2.

والتعظيم والإجلال ولما أن رفع الصوت قد يشتمل على أذى له واستخفاف به، وإن لم يقصد الرافع ذلك، فإذا كان الأذى والاستخفاف الذي يحصل في سوء الأدب من غير قصد صاحبه يكون كافرا، فالأذى والاستخفاف المقصود المتعمد كفر بطريق الأولى)[1].

وقال بعد أن ذكر جملة من الأحاديث في كفر المنتقص من النبي صلى الله عليه وسلم (**وبالجملة فمن قال أو فعل ما هو كفر كفر بذلك وإن لم يقصد أن يكون كافرا إذ لا يقصد الكفر أحد " إلا ما شاء الله ")**[2].

وإذا كان الإنسان قد يخرج من الإسلام دون أن يقصد الخروج منه فما معنى التوقف عن التكفير مطلقا حتى تنتفي موانعه؟

وقال رحمه الله في معرض حديثه عن سب النبي صلى الله عليه وسلم (والغرض هنا أنه **كما أن الردة تتجرد عن السب فكذلك تتجرد عن قصد تبديل الدين وإرادة التكذيب بالرسالة، كما تجرد كفر إبليس عن قصد التكذيب بالربوبية وإن كان عدم هذا القصد لا ينفعه، كما لا ينفع من قال الكفر ألا يقصد الكفر)**[3].

أما اشتراط قصد الكفر في التكفير فهذا يقتضى كما قال ابن الوزير في " إيثار الحق على الخلق" ألا يكون شيء من الأفعال والأقوال كفرا إلا مع الاعتقاد حتى قتل الأنبياء والاعتقاد من السرائر المحجوبة فلا يتحقق كفر كافر قط إلا بالنص الخاص في شخص شخص" كما هو اعتقاد المرجئة.

وقد جاء في حديث طارق بن شهاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (دخل الجنة رجل في ذباب، دخل النار رجل في ذباب قالوا وكيف ذلك يا رسول الله قال (مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجاوزه أحد حتى يقرب له شيئا فقالوا لأحدهما قرب، قال ليس عندي شيء أقرب، قالوا له قرب ولو ذبابا، فقرب ذبابا فخلوا سبيله فدخل النار وقالوا

1 - الصارم المسلول 115/114/2.

2 - الصارم المسلول ص 177.

3 - الصارم المسلول 370.

للآخر قرب فقال ما كنت لأقرب لأحد شيئا دون الله عز وجل فضربوا عنقه فدخل الجنة)[1].

فهذا الرجل لم يقصد عبادة غير الله بل قرب الذباب لينجو بنفسه ولم يكن يدري أن فعله ذلك يدخله النار.

ولذلك قال محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد: (فيه مسائل.. التاسعة: كونه دخل النار بذلك الذباب الذي لم يقصده بل فعله تخلصا من شرهم، الحادية عشرة: أن الذي دخل النار مسلم لأنه لو كان كافرا لم يقل " دخل النار في ذباب")[2].

قال عبد الرحمن بن حسن (وفي هذا الحديث التحذير من الوقوع في الشرك وأن الإنسان قد يقع فيه وهو لا يدري أنه من الشرك الذي يوجب النار)[3].

خ – الاستهزاء بالله وآياته

قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ * لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾[4].

قال أبو بكر بن العربي المالكى رحمه الله (لا يخلو أن يكون ما قالوه من ذلك جدا أو هزلا، وهو كيفما كان كفر، فإن الهزل بالكفر كفر، لا خلاف فيه بين الأمة فإن التحقيق أخو الحق والعلم والهزل أخو الباطل والجهل)[5].

قال ابن تيمية (﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ فاعترفوا واعتذروا ولهذا قيل: ﴿ لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ فدل على أنهم لم يكونوا عند أنفسهم قد أتوا كفرا بل ظنوا أن ذلك ليس بكفر، فبين أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر يكفُر

1 – رواه أحمد في الزهد (ص 15، 16) وأبو نعيم (203/1) عن طارق بن شهاب موقوفا بسند صحيح ولم يصح رفعه.

2 – مجموعة التوحيد ، كتاب التوحيد ص 140.

3 – فتح المجيد 168.

4 – التوبة الآية 65-66.

5 – أحكام القرآن 976/2-977.

صاحبُه بعد إيمانه، فدل على أنه كان عندهم إيمان ضعيف ففعلوا هذا المحرم الذي عرفوا أنه محرم، ولكن لم يظنوه كفرا. وكان كفرا كفروا به فإنهم لم يعتقدوا جوازه.

وهكذا قال غير واحد من السلف في صفة المنافقين الذين ضرب لهم المثل في سورة البقرة أنهم أبصروا ثم عموا وعرفوا ثم أنكروا وآمنوا ثم كفروا وكذلك قال قتادة ومجاهد: ضرب المثل لإقبالهم على المؤمنين وسماعهم ما جاء به الرسول وذهاب نورهم)[1].

د – دخول العبد النار بكلمة لا يرى بها بأسا لجهله

عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه و سلم قال (إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقى لها بالا يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في جنهم)[2].

قال الحافظ بن حجر ("لا يلقى لها بالا": أي لا يتأملها بخاطره ولا يتفكر في عاقبتها ولا يظن أنها تؤثر شيئا وهو من نحو قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾[3]. وقد وقع في حديث بلال بن الحارث المزني الذي أخرجه مالك وأصحاب السنن وصححه الترمذي وابن حبان والحاكم بلفظ (إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة) وقال في السخط مثل ذلك... وأخرج الترمذي هذا الحديث بلفظ (لا يرى بها بأسا يهوي بها في النار سبعين خريفا)[4]. وهذا الحديث من أعظم الزواجر عن إطلاق الكلام بغير علم.

ذ– ذهاب العلم والعلماء يفتح باب الشرك

وقد روى البخاري من حديث ابن عباس رضى الله عنه قال (صارت الأوثان التى في قوم نوح في العرب بعد أما "ود" فكانت لكلب بدومة الجندل وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ.

---

1 – مجموع الفتاوي 274/7.

2 – البخاري 6478.

3 – النور الآية 15.

4 – فتح الباري ، الطبعة الأولى ، في ثلاثة مجلدات 379/3.

وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع: أسماء رجال صالحين في قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابا، وسموها بأسمائهم ففعلوا، ولم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسى العلم عبدت)[1]. قال في فتح المجيد: (قوله: " ونسى العلم" ورواية البخاري وينسخ وللكشميهنى "ونسخ العلم" أي درست آثاره بذهاب العلماء، وعم الجهل حتى صاروا لا يميزون بين التوحيد والشرك، فوقعوا في الشرك ظنا منهم أنه ينفعهم عند الله)[2].

ر – القدرية كفار رغم جهلهم

روى مسلم من حديث يحى بن يعمر قال (كان أول من تكلم في القدر في البصرة معبد الجهنى فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين .. الحديث، وفيه أنهم سألوا ابن عمر عن ناس يقرؤون القرآن ويتقعرون العلم وذكر من شأنهم وأنهم يزعمون ألا قدر وأن الأمر أنف قال فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم براء منى والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر ... الحديث)[3].

قال النووي في شرحه للحديث : هذا الذي قاله ابن عمر رضى الله عنه ظاهر في تكفيره القدرية، قال القاضى عياض رحمه الله : " هذا في القدرية الأول الذين نفوا تقدم علم الله تعالى بالكائنات قال والقائل بهذا كافر بلا خلاف)[4].

وقال ابن تيمية (وأما كون الأشياء معلومة لله قبل كونها فهذا حق لا ريب فيه وكذلك كونها مكتوبة عنده أو عند ملائكته كما دل على ذلك الكتاب والسنة وجاءت به الآثار، وهذا العلم والكتاب هو القدر الذي ينكره غالبية القدرية ويزعمون أن الله لا يعلم أفعال العباد إلا بعد وجودها وهم كفار. كفرهم الأئمة كالشافعي وأحمد وغيرهما)[5].

1 – البخاري التفسير 4920 راجع تفسير الطبري 62/29 وإغاثة اللهفان 184/1.
2 – فتح المجيد 263.
3 – صحيح مسلم كتاب الإيمان 1.
4 – صحيح مسلم بشرح النووي 150/1.
5 – الفتاوي 152/2.

فتأمل كيف أن ابن عمر لم ينظر في حال هؤلاء بل قال بكفرهم بمجرد سماعه لمقالتهم، وهكذا الأئمة قالوا بكفرهم، ومعلوم أنهم ما قالوا مقالتهم إلا بسبب الجهل والتأويل الفاسد، ثم إنها دون عبادة غير الله، فكيف بمن وقع في الشرك بعبادة غير الله؟

ز – عبادة غير الله مع الجهل

قال ابن جرير رحمه الله: (فأما الذي لا يجوز الجهل به من دين الله لمن كان في قلبه من أهل التكليف لوجود الأدلة متفقة في الدلالة عليه غير مختلفة ظاهرة للحس غير خفية. فتوحيد الله تعالى ذكره والعلم بأسمائه وصفاته وعدله. وذلك أن كل من بلغ حد التكليف من أهل الصحة والسلامة فلن يعدم دليلا دالا وبرهانا واضحا يدله على وحدانية ربه جل ثناؤه ويوضح له حقيقة صحة ذلك، ولذلك لم يعذر الله جل ذكره أحدا كان بالصفة التي وصفت بالجهل وبأسمائه، وألحقه إن مات على الجهل به بمنازل أهل العناد فيه تعالى ذكره، والخلاف عليه بعدم العلم به وبربوبيته في أحكام الدنيا وعذاب الآخرة فقال جل ثناؤه: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾[1])[2].

قال محقق "التبصير" على بن عبد العزيز بن على الشبل –أحد المحققين الكبار– في تعليقه على كلام ابن جرير هذا: (ومثل هذا ما قاله – رحمه الله – في تفسيره لآيات الكهف (28/15) فقال: (والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال إن الله عز وجل عنى بقوله: ﴿ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ كل عامل عملا يحسبه فيه مصيبا، وأنه لله بفعله ذلك مطيع مُرض، وهو بفعله ذلك لله مسخط وعن طريق أهل الإيمان به جائر، كالرهبان والشمامسة وأمثالهم من أهل الاجتهاد في ضلالتهم وهم مع ذلك من فعلهم واجتهادهم بالله كفرة من أهل أي دين كانوا) ا.هـ

قال المحقق (وإن زعم هؤلاء– وبعضهم ذو اجتهاد وعبادة على طريقته– أنهم يتعبدون لله ويتقربون إليه، ومع هذا كله كفرهم الله وسماهم بأسماء الكفرة وجعل لهم أحكامهم في الآخرة، ولازمه أنه لم يعذرهم على جهلهم وظنهم (حسبانهم) أنهم على حَسَن من العمل صالح كما في سورة فاطر حيث يقول سبحانه: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا

1 – الكهف الآية 103-105.

2 – التبصير في معالم الدين ص 118/116.

يَصْنَعُونَ ﴾، قالها سبحانه في هؤلاء وأمثالهم، فجهلهم غير مقبول لوجوب طلب الهدى عليهم وتقرره في حقهم وهذه المسألة مهم فهمها".

ثم ساق رد ابن جرير رحمه الله على من زعم أنه لا يكفر بالله أحد إلا من حيث يقصد إلى الكفر بعد العلم بوحدانية الله. قال المحقق (وهذا مثل كفرة أهل الكتاب من اليهود والنصارى والقبوريين بل والوثنيين عموما لا يكفرون حتى يعلم قصدهم للكفر وعناد الله سبحانه وتعالى وهذا باطل بصريح القرآن والسنة... ودلالة الفطرة والعقل السليم. فتأمله بلوازمه ترى أثره)[1].

فتأمل رحمك الله كيف عطف القبوريين على اليهود والنصارى ثم عطف عليهم الوثنيين عموما مع العلم أن القبوريين ينتسبون للإسلام ويجهلون ما هم عليه من الشرك بالله، فصنيعه هذا هو ما يقتضيه الفهم السليم والمعرفة الحقة.

ملاحظة مهمة

إن من الباحثين من يقول بالعذر بالجهل حتى في أصل الدين ثم تراهم يطلقون أقوالا تخالف أصولهم، وما ذلك إلا لأن القول بالعذر بالجهل يفتح الباب لجعل مجرد الانتساب للإسلام كافيا لتحقيق الإيمان ولو لم يترك صاحبه الشرك بالله.

مثال ذلك ما ذكره الوهبيي في تنبيهات مهمة في مسألة الخلاف في العذر بالجهل أو عدمه، تحسن مراجعتها لتحقيق الوفاق واحترام المخالف والتزام البحث العلمي والنقد البناء.

منها ما أفاده في قوله (العذر بالجهل لا يشمل من يقع في أمور فيها نقض مجمل لأصول الإسلام، مثل أن يسجد للصنم أو للشمس والقمر أو ينكر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أو لا يؤمن باليوم الآخر أو يزعم أن لله صاحبة أو ولدا. أو يعتقد ألوهية البشر كبعض الباطنية أو يعتقد أن بعض الناس يسعهم الخروج عن الشريعة ونحو ذلك.

فالعذر يكون لمن وقع في بعض الانحرافات العقدية أو بعض آحاد الشرك وصوره، ولم تقم عليه الحجة فمحل العذر ما يتعلق بتفاصيل التوحيد لا بأصله والله أعلم.

1 – هامش التبصير في معالم الدين ص 118، 119.

إذ لا بد من الإقرار المجمل بالإسلام والتوحيد والبراءة المجملة من الشرك وأهله)[1].
وهذا منه نقض لما كان قرره من رفض تقسيم الدين إلى أصل لا يعذر جاهله وفروع هي محل العذر بالشروط المعروفة.

1 - نواقض الإيمان الاعتقادية 292/1.

2. الجهل الذي يعذر صاحبه

إن الجهل الذي يعذر صاحبه ويدخل الجنة إن مات على أصل الإيمان هو الجهل بالشرائع أو الجهل ببعض الصفات.. ما لم يكن صاحبه متمكنا من العلم. لا الجهل بأصل الدين. فإن من مات على الشرك في أصل الدين مع عدم تمكنه من العلم يسمى مشركا ولكنه لا يعذب حتى تقام عليه الحجة. أما إذا تمكن من العلم ومات على شركه وجهله فمعذب على شركه.

أقسام الناس في طلب الحق

1. ساع في طلب الحق لم يجد إلا من يدله على الباطل

فهذا لا يؤاخذ بجهله، قال ابن حزم (وأما من بلغ إليه خبر غير صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم وصححه له متأول أو جاهل أو فاسق لم يعلم هو بفسقه فهذا هو مبلغ اجتهاد هذا الإنسان، ولم يكلفه الله تعالى أكثر مما في وسعه ولا ما لم يبلغه فهو إن عمل بما بلغه من ذلك الباطل فمعذور بجهله لا إثم عليه لأنه لم يتجانف لإثم والأعمال بالنيات، فهو مجتهد مأجور مرة في قصده بنيته إلى الخير)[1].

فهذا حكم من حقق التوحيد ولم يدرك الفرائض والأحكام فلا يؤاخذ بجهله باتفاق. أما إذا لم يحقق التوحيد لعدم تمكنه من ذلك فحكمه حكم غير المتمكنين الذين لم تبلغهم الحجة في الدنيا ويختبرون يوم القيامة كما في حديث العرصات، ولا يمنع ذلك من إطلاق وصف الشرك عليه لأنه لم يحقق التوحيد. ولأن وصف الشرك يثبت قبل قيام الحجة الرسالية.

2. ساع لطلب الحق لم يجد إلا بعضه

فإذا حقق التوحيد وغاب عنه ما سواه من الفرائض ولم يتمكن من معرفته لندرة من يعرفه أو يدل عليه، فهذا لا يؤاخذ بما فاته وغاب عنه بعد سعيه وبذله المجهود في تحصيله.

---

1 - الإحكام 65/1.

ومثاله ما رواه البخاري (أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين و يتبعه، فلقى عالما من اليهود فسأله عن دينهم فقال: إني لعلى أن أدين دينكم فأخبرني فقال: لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله، قال زيد: ما أفر إلا من غضب الله وما أحمل من غضب الله شيئا أبدا وأنى أستطيعه؟ فهل تدلنى على غيره، قال ما أعلمه إلا يكون حنيفا قال زيد وما الحنيف؟ قال دين إبراهيم، لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولا يعبد إلا الله، فخرج زيد فلقى عالما من النصارى، فذكر مثله فقال: لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله، قال ما أفر إلا من لعنة الله، ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئا أبدا وأنى أستطيع ؟ فهل تدلنى على غيره؟ قال ما أعلمه إلا أن يكون حنيفا قال وما الحنيف؟ قال دين إبراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولا يعبد إلا الله فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم عليه السلام خرج فلما برز رفع يديه فقال: اللهم إني أشهد أني على دين إبراهيم)[1].

قال ابن حجر في رواية ابن إسحاق (وكان يقول: اللهم لو أعلم أحب الوجوه إليك لعبدتك به، ولكني لا أعلمه ثم يسجد على الأرض براحته)[2].

وإذا أدركت هذا وعلمت أن مشركى العرب قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم من أهل النار كما مر في حديث (إن أبي وأباك في النار) وحديث بني المنتفق وغيرهما.. ظهر لك جليا الفرق بين المتمكن الناجي والجاهل المعرض.

ومثل هذا – أي النجاة بتحقيق التوحيد ومؤاخذة المتمكن المعرض- حديث حذيفة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال (يدرس الإسلام كما يدرس وشى الثوب، حتى لا يدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة، وليسرى على كتاب الله تعالى في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة لا إله إلا الله فنحن نقولها) فقال صلة بن زفر لحذيفة فما تغنى عنهم لا إله إلا الله وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة؟ فأعرض عنه حذيفة في الثالثة فقال (يا صلة تنجيهم من النار، تنجيهم من النار) رواه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، قال ابن حجر (رواه ابن

1 - رواه البخاري (3827).

2 - فتح الباري 145/7.

ماجه بسند قوي عن حذيفة)[1]، فهؤلاء القوم ينجون بما حققوا من التوحيد ولا يؤاخذون بما غاب عنهم من الفرائض مع عدم تمكنهم من تحصيله.

3. غير ساع في طلب الحق مع تمكنه

فهذا آثم لا عذر له، مؤاخذ بذنبه في الدنيا والآخرة لأن الحجة قائمة عليه قال ابن القيم (اعتراف العبد بقيام حجة الله عليه من لوازم الإيمان أطاع أم عصى فإن حجة الله قامت على العبد بإرسال الرسول وإنزال الكتب وبلوغ ذلك إليه وتمكنه من العلم به سواء علم أو جهل فكل من تمكن من معرفة ما أمر الله به ونهى عنه فقصر عنه ولم يعرفه فقد قامت عليه الحجة)[2].

أهل الجاهلية في النار لقيام الحجة عليهم

إذا كان الله سبحانه قد أقام الحجة على مشركى قريش وغيرهم بدين إبراهيم مع ندرة من كان على علم به أو ببعضه، فنجى الله سبحانه من سعى لطلبه وأدرك بعضه، وعذب من لم يسع في طلبه ومات على شركه، فكيف يعذر الناس بالجهل في بلاد الإسلام مع كثرة العلماء وانتشار العلم وظهور شعائر الدين.

ولما وصل زيد بن عمرو بن نفيل إلى الدين الحق دل ذلك على تمكن أهل الجاهلية منه ولذلك كانوا من أهل النار كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾[3]. وكما في حديث أنس في صحيح مسلم (إن أبي وأباك في النار). وكما في حديث لقيط بن عامر في وفد بنى المنتق وفيه (لعمر الله ما أتيت عليه من قبر عامري أو قرشى من مشرك فقل أرسلنى إليك محمد فأبشرك بما يسوءك، تجر على وجهك وبطنك في النار) رواه عبد الله بن أحمد في "السنة" وابن أبي عاصم والطبراني وابن منده ... وقال فيه ابن القيم (هذا حديث كبير مشهور، جلالة النبوة بادية على صفحاته تنادي عليه بالصدق. وصححه بعض الحفاظ حكاه شيخ الإسلام الأنصاري)[4].

---

1 - فتح الباري 16/13.

2 - مدارج السالكين 239/1.

3 - آل عمران الآية 103.

4 - مختصر الصواعق المرسلة ص 379، 380.

3. أقسام أهل البدع

قال ابن القيم في نونيته (403/2) بشرح أحمد بن إبراهيم بن عيسى أثناء كلامه عن أهل البدع

هم عندنا قسمان أهل جهالة ... وذوو العناد وذانك القسمان
جمع وفرق بين نوعيها هما ... في بدعة لا شك يجتمعان
فذوو العناد فأهل كفر ظاهر ... والجاهلون فإنهم نوعان
متمكنون من الهدى والعلم بالـ ... ـأسباب ذات اليسر والإمكان
لكن إلى أرض الجهالة أخلدوا ... واستسهلوا التقليد كالعميان
لم يبذلوا المقدور في إدراكهم ... للحق تهوينا بهذا الشان
فهم الآلى لا شك في تفسيقهم ... والكفر فيه عندنا قولان
والوقف عندي فيهمُ لست الذي ... بالكفر أنعتهم ولا الإيمان

ثم شرع في ذكر القسم الآخر فقال

والآخرون فأهل عجز عن بلو ... غ الحق مع قصد ومع إيمان
بالله ثم رسوله ولقائه ... وهم إذا ميزتهم ضربان
قوم دهاهم حسن ظنهمُ بما ... قالته أشياخ ذووا أسنان
وديانة في الناس لم يجدوا سوى ... أقوالهم فرضوا بها بأمان
لو يقدرون على الهدى لم يرتضوا ... بدلا به من قائل البهتان
فأولاء معذورون إن لم يظلموا ... ويكفروا بالجهل والعدوان

فانظر رحمك الله كلام هذا الإمام المحقق وهو يتكلم عن أهل البدع، كيف أحسن التصنيف ودقق التقسيم.

فقسم أهل البدع إلى معاندين وجهال.

أما المعاندون فظاهر كفرهم، وأما الجهال فهم نوعان:

1-متمكنون أخلدوا إلى التقليد والجهل، فقصروا في طلب الحق، لا شك في تفسيقهم أما تكفيرهم ففيه قولان، واختار رحمه الله التوقف.

2-عاجزون مؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر، غير مقصرين في طلب الحق لو وجدوا الهدى لا تبعوه، لكنهم لم يجدوا غير أقوال شيوخ يحسنون الظن بهم فهؤلاء معذورون بجهلهم الذي لم يُقصِّروا في إزالته غير مؤاخذين بما جنوه بسببه.

والآخرون مؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر، لكن تشابهت عليهم الأمور بسبب سلوك طرق الزيغ مع حسن قصدهم فهؤلاء قال فيهم:

فأولاء بين الذنب والأجريـن أو إحداهما أو واسع الغفـران

وأعجب كل العجب ممن يذكر قول ابن القيم

فأولاء معذورون إن لم يظلمـوا ويكفروا بالجهل والعـدوان

ويستدل به على العذر بالجهل وإنما يتكلم ابن القيم عن أهل البدع مبينا ضابط التمكن فيا لمضرة الجهل وخطورة الغفلة والتقليد.

الشرائع تلزم المتمكن

قال أبو محمد بن حزم رحمه الله (**رأيت قوما يذهبون إلى أن الشرائع لا تلزم من كان جاهلا بها ولا من لم تبلغه،** قال: **وهذا باطل بل هى لازمة له لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى الإنس كلهم، وإلى الجن كلهم وإلى كل من لم يولد إذا بلغ بعد الولادة.**

قال أبو محمد: (قال الله تعالى آمرا له أن يقول: ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾[1]، وهذا عموم لا يجوز أن يخص منه أحد وقال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾[2]، فأبطل سبحانه أن يكون أحد سدى والسدى المهل الذي لا يؤمر ولا ينهى، فأبطل عز وجل هذا الأمر، ولكنه معذور بجهله ومغيبه عن المعرفة فقط، وأما من بلغه ذكر النبى صلى الله عليه وسلم حيث ما كان من أقاصي الأرض، ففرض عليه البحث عنه، فإذا بلغته

1 - الأعراف الآية 158.

2 - القيامة الآية 36.

نذارته ففرض عليه التصديق به واتباعه وطلب الدين اللازم له والخروج عن وطنه لذلك، وإلا فقد استحق الكفر والخلود في النار، والعذاب بنص القرآن وكل ما ذكرنا يبطل قول من قال من الخوارج إن في حين بعث النبي صلى الله عليه وسلم يلزم من في أقاصى الأرض الإيمان به ومعرفة شرائعه، فإن ماتوا في تلك الحال ما تواكفارا إلى النار. ويبطل هذا قول الله عز وجل: ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾[1] وليس في وسع أحد علم الغيب.

فإن قالوا فهذه حجة الطائفة القائلة إنه لا يلزم أحدا شيئ من الشرائع حتى تبلغه، قلنا :لا حجة لهم فيها، لأن كل ما كُلف الناس فهو في وسعهم ... إلا أنهم معذورون بمغيب ذلك عنهم ولم يكلفوا ذلك تكليفا يعذبون به إن لم يفعلوه وإنما كلفوه تكليف من لا يعذبون حتى يبلغهم، ومن بلغه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن له أمرا من الحكم مجملا ولم يبلغه نصه، ففرض عليه إجهاد نفسه في طلب ذلك الأمر، وإلا فهو عاص لله عز وجل قال الله تعالى: ﴿ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾[2])[3].

وإذا كان العلماء لم يعذروا القادر على التعلم فكيف بمن بلغه الحق وأبى إلا الباطل بسبب تقصيره في طلب الحق وإعراضه عما جاءه.

وأحسن عبد القادر عوده حين قال: (من المبادئ الأولية في الشريعة الإسلامية أن الجاني لا يؤاخذ على الفعل المحرم إلا إذا كان عالما علما تاما بتحريمه فإذا جهل التحريم ارتفعت عنه المسؤولية ويكفى في العلم بالتحريم إمكانه فمتى بلغ الإنسان عاقلا وكان ميسرا له أن يعلم ما حرم عليه إما برجوعه للنصوص الموجبة للتحريم وإما بسؤال أهل الذكر اعتبر عالما بالأفعال المحرمة، ولم يكن له أن يعذر بالجهل أو يحتج بعدم العلم، ولهذا يقول الفقهاء **" لا يقبل في دار الإسلام العذر بجهل الأحكام"**.

ويعتبر المكلف عالما بالأحكام بإمكان العلم لا بتحقق العلم فعلا لأن ذلك يؤدي إلى الحرج ويفتح باب الإدعاء بالجهل على مصراعيه ويعطل تنفيذ النصوص وهذه هى القاعدة العامة في الشريعة الإسلامية ولا استثناء لها وإذا كان الفقهاء يرون قبول الاحتجاج بجهل الأحكام ممن عاش في بادية لا يختلط بمسلمين، أو ممن أسلم حديثا ولم يكن مقيما بين

1 – البقرة الآية 286.

2 – النحل الآية 43.

3 – الفصل في الملل والأهواء والنحل 106/4.

المسلمين فإن هذا ليس استثناء في الواقع، وإنما هو تطبيق للقاعدة الأصلية التى تمنع من مؤاخذة من يجهل التحريم حتى يصبح العلم ميسرا. فمثل هؤلاء لم يكن العلم ميسرا لهم، ولا يعتبرون عالمين بأحكام الشريعة، أما إذا كان مدعي الجهل ناشئا بين المسلمين أو أهل العلم فلا يقبل منه الإدعاء بالجهل)[1].

وكلامه هذا عن أحكام الشريعة لا التوحيد إذ لا يمكنه القول إنهم " لا يعتبرون عالمين بالتوحيد" كما قال في " أحكام الشريعة" إذ أن معرفة التوحيد شرط في تحقيق الإيمان فهو أصل الأصول، الذي يدخل صاحبه دائرة الإيمان وإن غابت عنه الشرائع، فجهل الفرائض والمحرمات وما دون أصل الأصول لا يؤاخذ صاحبه ولا يعاقب عليه ما لم يكن متمكنا من العلم به.

قال ابن قدامة الحنبلى : (ولا حد على من لم يعلم تحريم الزنا، قال: عمر وعثمان وعلى : لا حد إلا على من علمه، وبهذا قال عامة أهل العلم، فإن أدعى الزاني الجهل بالتحريم وكان يحتمل أن يجهله كحديث العهد بالإسلام والناشئ ببادية قبل منه لأنه يجوز أن يكون صادقا، وإن كان ممن لا يخفى عليه ذلك كالمسلم الناشئ بين المسلمين وأهل العلم، لم يقبل لأن تحريم الزنا لا يخفى على من هو كذلك فقد علم كذبه، وإن ادعى الجهل بفساد نكاح قبل قوله لأن عمر قبل قول المدعي الجهل بتحريم النكاح في العدة، ولأن مثل هذا يجهل كثيرا ويخفى على غير أهل العلم)[2].

وهكذا ترى في كلام العلماء عذر جاهل مثل هذه الأمور بالشروط المذكورة في ضابط التمكن من العلم، ولا يذكرون أنه يعذر بالجهل من نقض أصل الدين أو جهل ما لا يصح الإيمان إلا مع العلم به لاستحالة ذلك، ولو كان ذلك بالإمكان لذكروه في هذا المكان.

جاهل ما دون التوحيد لا يكفر حتى يعرف

قال أبو محمد بن حزم (ومن لم تبلغه واجبات الدين فإنه معذور ولا ملامة عليه وقد كان جعفر بن أبي طالب وأصحابه رضى الله عنهم بأرض الحبشة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة والقرآن ينزل والشرائع تشرع فلا يبلغ إلى جعفر وأصحابه أصلا، لانقطاع

1 - التشريع الجنائي الإسلامي 430/1، 431.

2 - المغني مع الشرح الكبير 156/10.

الطريق جملة من المدينة إلى أرض الحبشة وبقوا كذلك ست سنين فما ضرهم ذلك في دينهم شيئا إذا عملوا بالمحرم وتركوا المفروض)[1].

ومعلوم أن جعفرا وأصحابه حققوا التوحيد وعملوا بما يقتضيه، فلم يضرهم ما غاب عنهم من الشرائع التي لم تبلغهم وياعجبا لمن يقول إن ابن حزم يعذر جاهل التوحيد مستدلا بهذا النص منه ففاعل ذلك لم ينتبه فضلا عن كونه لم يمعن النظر بل سلك مسلك الغافلين واتبع طريقة الجاهلين.

وقال ابن قدامة (ولا خلاف بين أهل العلم في كفر من تركها –يعني الصلاة– جاحدا لوجوبها إذا كان ممن لا يجهل مثله ذلك، فإن كان ممن لا يعرف الوجوب كحديث الإسلام والناشئ بغير دار الإسلام أو بادية بعيدة عن الأمصار وأهل العلم لم يحكم بكفره وعرف ذلك وتثبت له أدلة وجوبها فإن جحدها بعد ذلك كفر، وأما الجاحد لها ناشئا في الأمصار بين أهل العلم فإنه يكفر بمجرد جحدها وكذلك الحكم في مباني الإسلام كلها وهي الزكاة والصيام والحج، لأنها مبادئ الإسلام وأدلة وجوبها لا تكاد تخفى إذ كان الكتاب والسنة مشحونين بأدلتها والإجماع منعقد عليها فلا يجحدها إلا معاند للإسلام، يمتنع من التزام الأحكام غير قابل لكتاب الله تعالى ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولا إجماع الأمة.. وكذلك كل جاهل بشيء يمكن أن يجهله لا يحكم بكفره حتى يعرف ذلك وتزول الشبهة ويستحله بعد ذلك)[2].

وقال ابن حزم (ولو أن امرءً بدل القرآن مخطئاً جاهلاً، أو صلى لغير القبلة كذلك، ما قدح ذلك في دينه عند أحد من أهل الإسلام حتى تقوم عليه الحجة بذلك)[3].

غير المتمكنين من العلم

وغير المتمكنين من العلم كمن أسلم بدار حرب أصلية أو حديث عهد بالإسلام أو من نشأ ببادية بعيدة.

---

1 - الفصل 60/4.

2 - المغني 131/1-132.

3 _ الإحكام في أصول الأحكام 131/1 وراجع الفتاوى (407/11).

قال شيخ الإسلام (اتفق الأئمة على أن من نشأ ببادية بعيدة عن أهل العلم والإيمان وكان حديث العهد بالإسلام فأنكر شيئا من هذه الأحكام الظاهرة المتواترة فإنه لا يحكم بكفره حتى يعرف ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم)[1].

وأعظم ما جاء به بالرسول صلى الله عليه وسلم "لا إله إلا الله" ومن دخل الإسلام فلا ريب أنه عرف معنى "لا إله إلا الله" وعمل بمقتضاها ولذلك كان مسلما فمتى ظهر منه نقض ل "لا إله إلا الله " في أسمى معانيها دل ذلك على عناده أو على جهله بها وفساد عقد إسلامه.

اعتبار الدار ومظنة العلم

ويجب على المكلف (أن يؤمن بالله ورسوله ويقر بجميع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من أمر الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وما أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم ونهى، بحيث يقر بجميع ما أخبر به وما أمر به فلا بد من تصديقه والانقياد له فيما أمر، وأما التفصيل فعلى كل مكلف أن يقر بما ثبت عنده من أن الرسول أخبر به وأمر به، وأما ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يبلغه أنه أخبر به ولم يمكنه العلم بذلك، فهو لا يعاتب على ترك الإقرار به مفصلا وهو داخل في إقراره بالمجمل العام. ثم إن قال بخلاف ذلك متأولا كان مخطئا يغفر له خطؤه، إذا لم يحصل منه تفريط ولا عدوان، ولهذا يجب على العلماء من الاعتقاد ما لا يجب على آحاد العامة، ويجب على من نشأ بدار علم وإيمان من ذلك ما لا يجب على من نشأ بدار جهل)[2].

1 - الفتاوى 407/11.

2 - مجموع الفتاوى 327/3، 328.

4. جهل الصفة

قال الإمام ابن جرير: (القول فيما أدرك علمه من صفات الصانع خبرا لا استدلالا: أما ما لا يصح عندنا عقد الإيمان لأحد ولا يزول حكم الكفر إلا معرفته[1] فهو ما قدمنا ذكره. وذلك أن الذي ذكرنا قبل من صفاته، لا يعذر بالجهل به أحد بلغ حد التكليف كان ممن أتاه من الله تعالى ذكره رسول أو لم يأته رسول، عاين من الخلق غيره أو لمن يعاين أحدا سوى نفسه.

ولله -تعالى ذكره- أسماء وصفات جاء بها كتابه وأخبر بها نبيه صلى الله عليه وسلم أمته لا يسع أحدا من خلق الله قامت عليه الحجة بأن القرآن نزل به، وصح عنده قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه به الخبر منه خلافه، فإن خالف ذلك بعد ثبوت الحجة عليه به من جهة الخبر على ما بينت فيما لا سبيل إلى إدراك حقيقة علمه إلا حسا فمعذور بالجهل به الجاهل، لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل ولا بالروية والفكرة وذلك نحو إخبار الله تعالى ذكره إيانا أنه سميع بصير، وأن له يدين لقوله: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء ﴾[2]. وأن له يمينا لقوله: ﴿ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [3]. وأن له وجها لقوله: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[4])[5].

وذكر غيرها من الصفات التي هي عرضة للتأويل فأثبت أن لله قدما وأنه يضحك وأنه ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا وأنه ليس بأعور وأن المؤمنين يرونه يوم القيامة بأبصارهم وأن له أصابع، ثم قال رحمه الله (فإن هذه المعاني التي وصفت ونظائرها مما وصف الله عز وجل بها نفسه أو وصفه بها رسوله صلى الله عليه وسلم مما لا تدرك حقيقة علمه بالفكر والروية، ولا نكفر بالجهل بها أحدا، إلا بعد انتهائها إليه)[6].

---

1 - قال محقق التبصير : هذا ما في الأصل ولعل الصواب إلا بمعرفته.

2 - المائدة الآية 64.

3 - الزمر الآية 67.

4 - القصص الآية 88.

5 - التبصير ص 132-133.

6 - التبصير في معالم الدين ص 139.

وقال الشافعى (لله أسماء وصفات لا يسع أحدا ردها ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه فقد كفر، وأما قبل قيام الحجة فإنه يعذر بالجهل، لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل ولا الروية والفكر)[1].

وكأن ما يدرك بالعقل والروية والفكر لا يعذر بجهله، وهذا شبيه جدا بكلام ابن جرير، وأشير هنا إلى أن الذين يعذرون بالجهل مطلقا ينقلون مثل هذه الأقوال للاستدلال على عموم قاعدة العذر بالجهل ولا يفصلون ولا يقيدونها بقيودها المعلومة.

صفات لا يسع أحدا جهلها

اعلم رحمك الله أن العذر بجهل الصفات ليس على إطلاقه، قال ابن جرير رحمه الله (قد دللنا فيما مضى قبل من كتابنا هذا أنه لا يسع أحدا بلغ حد التكليف الجهل بأن الله جل ذكره، عالم له علم وقادر له قدرة ومتكلم له كلام وعزيز له عزة وأنه خالق وأنه لا محدث إلا مصنوع مخلوق، **وقلنا من جهل ذلك فهو بالله كافر**)[2]. فهذه الصفات لا يعذر جاهلها لأنها تطعن في الألوهية والربوبية في الصميم.

تصنيف العلماء لما يعذر فيه بالجهل وما لا يعذر فيه به

لقد اعتنى العلماء الكرام بهذا الباب خصوصا في كتاب الردة، وسيأتي مزيد بيان لهذا الموضوع في الكلام عن الردة عند الفقهاء.

قال القاضى عياض في خضم كلامه عن سب النبى ص: (أن يكون القائل لما قال في جهته – عليه السلام – غير قاصد للسب والازدراء ولا معتقد له، ولكنه تكلم في جهته – عليه السلام- بكلمة الكفر من لعنه أو سبه أو تكذيبه أو إضافة ما لا يجوز عليه أو نفى ما يجب له مما هو في حقه – عليه السلام- نقيصة، مثل أن ينسب إليه إتيان كبيرة أو مداهنة في تبليغ الرسالة، أو في حكم بين الناس أو يغض من مرتبة أو شرف نسبه أو وفور علمه أو زهده أو يكذب بما اشتهر به من أمور أخبر بها – عليه السلام- أو تواتر الخبر بها عن قصد لرد خبره أو يأتي بسفه من القول وقبيح من الكلام ونوع من السب في حقه، وإن ظهر بدليل حاله أنه لم يتعمد ذمه ولم يقصد سبه، إما لجهالة حملته على ما قاله أو الضجر أو سكر اضطره إليه أو قلة مراقبة وضبط للسانه وعجرفة وتهور في كلامه.

---

1 - فتح الباري 418/13.

2 - التبصير ص 149.

فحكم هذا الوجه حكم الوجه الأول القتل وإن تلعثم إذ لا يعذر أحد في الكفر بالجهالة ولا بدعوى زلل اللسان ولا بشيء مما ذكرناه إذا كان عقله في فطرته سليما إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان)[1].

وأذكر هاهنا ما نقله القاضي عياض (الشفا 277/2) من قولهم – العلماء- " يجب الاحتراز من التكفير في أهل التأويل فإن استباحة دماء المصلين الموحدين خطر والخطأ في ترك ألف كافر أهون من الخطإ في سفك محجمة دم مسلم واحد" فإنما هو في إكفار المتأولين لا في إكفار من بان كفره وتجلى ضلاله البعيد.

وقال أيضا في بيان ما هو من المقالات كفر (... وكذلك نكفر بكل فعل أجمع المسلمون أنه لا يصدر إلا من كافر، وإن كان صاحبه مصرحا بالإسلام مع فعله ذلك الفعل . كالسجود للصنم وللشمس والقمر والصليب والنار والسعي إلى الكنائس والبيع مع أهلها والتزين بزيهم من شد الزنانير وفحص الرؤوس، فقد أجمع المسلمون على أن هذا لا يوجد إلا من كافر وأن هذه الأفعال علامة على الكفر وإن صرح فاعلها بالإسلام.

وكذلك أجمع المسلمون على تكفير كل من استحل القتل أو شُربِ الخمر أو الزنا مما حرمه الله بعد علمه بتحريمه كأصحاب الإباحة من القرامطة وبعض غلاة المتصوفة)[2].

قال ملا القاري تعليقا على قوله " فحص الرؤوس " (لعل فحص الرأس – أي حلق وسطه– كان شعارا للكفر قبل ذلك، وأما الآن فقد كثر في المسلمين فلا يعد كفرا)[3].

فتأمل كيف نقل القاضي عياض الإجماع على أن عبادة غير الله كالسجود لصنم ونحوه لا توجد إلا من كافر ولم يقيدها بالعلم. وعندما ذكر استحلال المحرمات قيد كفر فاعله بالعلم. ذلك لأن أصل الدين الذي هو توحيد الله هو الذي دخل به المرء الإسلام وعصم به دمه وماله وجرت عليه به الأحكام لا بغيره من الأصول فضلا عن الفروع، ولذلك فإن من لقى الله محققا للتوحيد لم يعمل غيره وغابت عنه الشرائع فقد فاز. بخلاف من عمل بالفرائض كلها ولم يحقق التوحيد، فعمله هباء منثور لا ينجيه من الخلود في النار.

1 – الشفا بتعريف حقوق المصطفى 331/2 ، طبعة هشام على حافظ ، الطبعة الأولى.

2 – الشفا 397/2.

3 – الشفا بشرح نور الدين ملا علي القاري 431/5.

قال الشيخ سليمان بن سحمان النجدي : (إن الشرك الأكبر من عبادة غير الله وصرفها لمن أشركوا به مع الله من الأنبياء والأولياء والصالحين فإن هذا لا يعذر أحد في الجهل به بل معرفته والإيمان به من ضروريات الإسلام)[1].

وقال مفتي الديار النجدية أبو بطين: (ومن المعلوم أن أهل البدع الذين كفرهم السلف والعلماء بعدهم، أهل علم وعبادة وفهم وزهد، ولم يوقعهم فيما ارتكبوه إلا الجهل. والذين حرقهم علي بن أبي طالب بالنار هل آفتهم إلا الجهل؟

ولو قال إنسان أنا أشك في البعث بعد الموت لم يتوقف من له أدنى معرفة في كفره والشاك جاهل)[2].

وقال (ومما يبين أن الجهل ليس بعذر في الجملة قوله صلى الله عليه وسلم في الخوارج ما قال مع عبادتهم العظيمة ومن المعلوم أنه لم يوقعهم فيما وقعوا فيه إلا بالجهل، وهل صار الجهل عذرا لهم ؟

يوضح ما ذكرنا أن العلماء من كل مذهب يذكرون في كتب الفقه باب حكم المرتد وهو المسلم الذي يكفر بعد إسلامه وأول شيء يبدؤون به من أنواع الكفر الشرك، يقولون من أشرك بالله كفر لأن الشرك عندهم أعظم أنواع الكفر، ولم يقولوا إن مثله لا يجهله كما قالوا فيما دونه)[3].

جاهل التوحيد ليس مسلما على كل حال

قال العلامة ابن باز في رده على سؤال عن العذر بالجهل : (الأمور قسمان : قسم يعذر فيه بالجهل. فإذا كان من أتى ذلك بين المسلمين وأتى الشرك بالله وعبد غير الله فإنه لا يعذر لأنه مقصر لم يسأل، ولم يتبصر في دينه فيكون غير معذور في عبادته غير الله من أموات أو أشجار أو أحجار أو أصنام لإعراضه وغفلته عن دينه كما قال الله سبحانه: ﴿... وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴾[4] ولأن النبي صلى الله عليه وسلم لما استأذن ربه أن يستغفر لأمه لأنها ماتت في الجاهلية لم يأذن له ليستغفر لها، لأنها ماتت على دين

1 - (كشف الشبهتين ص 63) (فتاوى الأئمة النجدية 188/3).

2 - فتاوى الأئمة النجدية 184/3، 185.

3 - فتاوى الأئمة النجدية 183/3 راجع الدرر السنية (391/10).

4 - الأحقاف الآية 3.

قومها عباد الأوثان، ولأنه صلى الله عليه وسلم قال لشخص سأله عن أبيه قال (هو في النار) لأنه مات على الشرك بالله وعلى عبادة غيره سبحانه وتعالى. فكيف بالذي بين المسلمين وهو يعبد البدوي أو يعبد الحسين أو الشيخ عبد القادر الجيلاني أو يعبد الرسول محمدا صلى الله عليه وسلم أو يعبد عليا أو يعبد غيرهم، فهؤلاء وأشباههم. لا يعذرون من باب أولى، لأنهم أتوا الشرك الأكبر وهم بين المسلمين والقرآن بين أيديهم... وهكذا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم موجودة بينهم ولكنهم عن ذلك معرضون.

والقسم الثاني : من يعذر بالجهل كالذي ينشأ في بلاد بعيدة عن الإسلام في أطراف الدنيا أو لأسباب أخرى كأهل الفترة ونحوهم ممن لم تبلغه الرسالة، فهؤلاء معذورون لجهلهم وأمرهم إلى الله عز وجل، والصحيح أنهم يمتحنون يوم القيامة فيؤمرون فإن أجابوا دخلوا الجنة وإن عصوا دخلوا النار : لقوله جل وعلا ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ ولأحاديث صحيحة وردت في ذلك.

وقد بسط العلامة ابن القيم رحمه الله الكلام في هذه المسألة في آخر كتابه : (طريق الهجرتين) لما ذكر طبقات المكلفين فليراجع هناك لعظم فائدته)[1].

فتأمل رحمك الله كيف جعل القسم الثاني – كالذي نشأ في أرض بعيدة – يعذر بجهله، لكن حكمه حكم أهل الفترة. هذا إذا كان فعل ما هو مناقض لأصل التوحيد كعبادة البشر من دون الله، فمن عبد غير الله ليس مسلما على كل حال، وكونه جاهلا غير متمكن من العلم إنما يمنع من القول بتعذيبه حتى يمتحن، كما في حديث العرصات، وقد ذكره ابن كثير وصححه بطرقه (تفسير القرآن العظيم 28/3- 31) وابن القيم (طريق الهجرتين وباب السعادتين) (397 – 401) وابن حزم (الفصل 105/4) وجمع السيوطي طرقه في الحاوي للفتاوي (356/2 – 359) والبيهقي وغيرهم عن الأسود بن سريع عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (أربعة يحتجون يوم القيامة رجل أصم لا يسمع ورجل هرم ورجل أحمق ورجل مات في الفترة... الحديث) .

1 – مجموع فتاوى ابن باز – جمع محمد بن سعد الشويعر 26/4 ، 27.

5. هل يعذر الناس اليوم

إنك يا أخا الإيمان إذا تأملت في ضابط التمكن من العلم أدركت أنه من المتعسر جدا أن تجد معذورا بجهله في هذا الزمان، وإذا طبقنا قول بعض من يعذر بالجهل مع ما في قوله من الإجمال فإننا سنجد ذلك جليا واضحا.

مثال ذلك ما جاء في فتوى لابن عثيمين وقد سئل عن شروط الحكم بتكفير المسلم ...؟ فأجاب قائلا :

(للحكم بتكفير المسلم شرطان : أحدهما :

- ❖ أن يقوم الدليل على أن هذا الشيء مما يكفر،
- ❖ والثاني: انطباق الحكم على من فعل ذلك بحيث يكون عالما بذلك قاصدا له، فإن كان جاهلا لم يكفر لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا ﴾[1]، وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[2]، وقوله: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[3]. **لكن، إن فرط بترك التعلم والتبين لم يعذر، مثل أن يبلغه أن عمله هكذا كفر فلا يتثبت ولا يبحث فإنه لا يكون معذورا حينئذ** ..)[4].

فتأمل قوله (.. إن فرط بترك التعلم والتبيّن لم يعذر مثل أن يبلغه أن عمله كفر فلا يتثبت ولا يبحث ..) ورغم الخطإ في الإجمال و عدم التفصيل على ضوء ما تقدم مما يعذر فيه بالجهل وما لا يعذر فيه به، إلا أن الواقعين في الشرك بلغهم أن عملهم شرك وسمعوا الأدلة على بطلانه فأبوا إلا البقاء على ماهم عليه من الشرك فما الذي جعل القوم يناضلون عنهم والحجة قائمة عليهم، حتى على قول من يعذر بالجهل من العلماء ذلك لتمكنهم من العلم وإعراضهم عن طلبه.

---

1 – النساء الآية 115.

2 – التوبة الآية 115.

3 – الإسراء الآية 15.

4 – مجموع فتاوى ابن عثيمين 125/2 ، 126.

من جهل اليوم فبسبب إعراضه

ونختم هذا الموضوع بكلمة مضيئة للعلامة الشوكاني في رده على سؤال في الموضوع يبين فيه أن الجاهل اليوم معرض عن الحق غير معذور، لظهور معالم الدين وكثرة العلماء وتمكن الجهال من تحصيل شتى العلوم لقيام الحجة بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم فقال رحمه الله :

(**من وقع في الشرك جاهلا لم يعذر، لأن الحجة قامت على جميع الخلق بمبعث النبي صلى الله عليه و سلم**، فمن جهل فقد أُتي من قبل نفسه بسبب الإعراض عن الكتاب والسنة وإلا ففيهما البيان الواضح كما قال سبحانه وتعالى في القرآن ﴿ ... تِبْيَانًا لِّكُلّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[1]. وكذلك السنة قال أبو ذر رضى الله عنه (توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما ترك طائرا يقلب جناحيه بين السماء والأرض إلا ذكر لنا منه علما[2]. أوكما قال رضي الله عنه، فمن جهل فبسبب إعراضه ولا يعذر أحد بالإعراض) [3].

1 – النحل الآية 89.

2 – أخرجه أحمد (153/5) و (162/5) والطبراني في الكبير (1647) وقال الهيثمي : (رجال الطبراني رجال الصحيح غير محمد بن عبد الله بن يزيد المقري وهو ثقة ، وفي إسناد أحمد من لم يسم) مجمع الزوائد 263/8 ، 264).

3 – الأجوبة الشوكانية عن الأسئلة الحفظية ص 39 ، 40 ، نشر دار الأخلاء للنشر والتوزيع – الدمام – الطبعة الأولى 1410 هـ 1995 م.

الردة

1. الردة عند الفقهاء
2. التبصير وإزالة الشبهة بعد الحكم بالردة
3. تفصيل العلماء للأقوال والأعمال الكفرية

1. الردة عند الفقهاء

تعريف الردة

قال المناوي الشافعي (والردة لغة الرجوع عن الشيء إلى غيره، وشرعا قطع الإسلام بنية أو قول أو فعل مكفر)[1].

وقال السبكي : (التكفير حكم شرعي سببه جحد الربوبية أو الوحدانية أو الرسالة أو قول أو فعل حكم الشارع بأنه كفر وإن لم يكن جحدا)[2].

وقال القرافي المالكي : (وأصل الكفر إنما هو انتهاك خاص لحرمة الربوبية، إما بالجهل بوجود الصانع أو صفاته العلا أو يكون الكفر بفعل كرمي المصحف في القاذورات أو السجود لصنم أو التردد للكنائس في أعيادهم بزي النصارى ومباشرة أحوالهم...)[3].

وقال خليل في مختصره (الردة كفر مسلم بصريح أو لفظ يقتضيه أو فعل يتضمنه كإلقاء مصحف بقذر وشد زنار وسحر..)[4].

وقال ابن النجار الحنبلي في شرحه ل "المنتهى" : (قال : (باب حكم المرتد) وهو لغة الراجع (من كفر ولو) كان (مميزا بنطق أو اعتقاد أو شك أو فعل) طوعا (ولو كان هازلا) بعد إسلامه)[5].

فتأمل كيف ذكر الشك وهذا كثير في مصنفات العلماء والشاك جاهل كما تقدم ثم لم يقيد ذلك بالطواعية ليخرج المكره ثم قال بعد أن ذكر بعض المحرمات التي يكفر مستحلها (فأما من استحل شيئا مما تقدم ذكره ونحوه بغير تأويل (أو سجد لكوكب أو نحوه) كالشمس والقمر والصنم كفر لأن ذلك إشراك، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ

---

1 - التوقيف على مهمات التعريف ص 176.

2 - فتاوى السبكي 586/2.

3 - أنوار البروق في أنواع الفروق 224/1.

4 - مختصر خليل بن اسحاق ص 281.

5 - معونة أولي النهى شرح المنتهى 541/8.

أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا ﴾ [1] (أو أتى بقول أو فعل صريح في الاستهزاء بالدين كفر) لقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ * لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾[2])[3].

فانظر كيف قيد كفر المستحل لبعض المحرمات بعدم التأويل ولم يفعل ذلك مع من سجد لكوكب أو شمس أو قمر أو صنم أو أتى بقول أو فعل صريح في الاستهزاء بالدين لأنه إشراك بالله وكفر به لا عذر لصاحبه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان.

قال علاء الدين الكاساني الحنفى :(فصل ... أما ركنها – يعنى الردة – فإجراء كلمة الكفر على اللسان بعد وجود الإيمان، إذ الردة عبارة عن الرجوع عن الإيمان فالرجوع عن الإيمان يسمى ردة في عرف الشرع)[4].

وقال ابن برهان الدين ابن مازه الحنفى (ت 616 هـ) في "المحيط" من أتى بلفظة الكفر مع علمه أنها لفظة الكفر عن اعتقاد فقد كفر، و إن لم يعتقد أو لم يعلم أنها لفظة كفر ولكن أتى بها عن اختيار فقد كفر عند عامة العلماء ولا يعذر بالجهل...) نقله عالم بن العلاء الدهلوي (ت 786 هـ) مقرا عليه (الفتاوى التتار خانية 458/5).

كما استشهد به محمد بن فراموز الحنفى (ت 885 هـ) في درر الحكام شرح غرر الأحكام (324/1)، كما أقره عبد الرحمن بن زاده داماد في مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر(487/2)، وهو معلوم متداول في كتب الأحناف.

الردة دون قصد أو شعور

قال محمد بن إسماعيل الصنعاني (صرح الفقهاء في كتب الفقه في باب الردة أن من تكلم بكلمة الكفر يكفر وإن لم يقصد معناها)[5].

---

1 – النساء الآية 161.

2 – التوبة الآية 65، 66.

3 – معونة أولي النهى 546/8.

4 – بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع 134/7.

5 – تطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد ص 30.

وقال محمد بن على الشوكاني (وكثيرا ما يأتي هؤلاء الرعايا بألفاظ كفرية فيقول هو يهودي ليفعلن كذا وليفعلن كذا فيرتد تارة بالقول وتارة بالفعل وهو لا يشعر)[1].

2. التبصير وإزالة الشبهة بعد الحكم بالردة

الوقوع في الكفر موجب للردة

وقد ظهر ذلك جليا في ما مر من كلام العلماء في أبواب الردة.

قال الشوكاني رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾[2]، (أي : أنهم كفروا بهذه الكلمة بعد إظهارهم للإسلام، وإن كانوا كفارا في الباطن، والمعنى أنهم فعلوا ما يوجب كفرهم على تقدير صحة إسلامهم ...)[3].

3. الغالب في الردة أن تكون عن شبهة

قال أبو بكر ابن محمد بعد أن عرف الردة وذكر أنواعها، وهل تستحب استتابة المرتد أم تجب قال (والصحيح أنها تجب ثم قال (لأن الغالب في الردة أن تكون عن شبهة عرضت له، فلم يجز القتل قبل كشفها والاستتابة منها كأهل الحرب فإنا لا نقتلهم إلا بعد بلوغ الدعوة وإظهار المعجزة)[4].

وقال الحطاب في "مواهب الجليل" شرح مختصر خليل : (قال بن العربي في أول كتاب التوسط في أصول الدين : ألا ترى أن المرتد استحب له العلماء الإمهال، لعله إنما ارتد لريب فيتربص به مدة لعله أن يراجع الشك باليقين والجهل بالعلم ولا يجب ذلك لحصول العلم بالنظر الصحيح الأول). فهذا جلي في عدم اعتبار الجهل والشبهات أعذارا.

---

1 - الدواء العاجل ص 14.

2 - التوبة الآية 74.

3 - فتح القدير ص 719.

4 - كفاية الأخيار 123/2.

وقال صاحب الفقه على المذاهب الأربعة: بعد أن ذكر تعريف الردة وأسبابها ثم شرع في الكلام على استتابة المرتد قال:

❖ (الحنفية قالوا : إذا ارتد المسلم عن الإسلام – والعياذ بالله تعالى – عرض عليه الإسلام فإن كانت له شبهة أبداها كشفت عنه، لأنه عساه اعترضت له شبهة في الدين فتزاح عنه..

❖ الشافعية قالوا : إذا ارتد المسلم – والعياذ بالله – فإنه يجب على الإمام أن يؤجله ثلاثة أيام، ولا يحل له أن يقتله قبل ذلك، لأن ارتداد المسلم عن دينه يكون عن شبهة غالبا، فلا بد من مدة يمكنه التأمل فيها ليتبين له الحق ..

❖ المالكية قالوا : يجب على الإمام أن يمهل المرتد ثلاثة أيام بلياليها .. وإنما يستتاب المرتد وجوبا ذلك القدر، صونا للدماء ودرأ للحدود بالشبهات.

❖ الحنابلة قالوا : في إحدى روايا تهم إنه يجب الاستتابة ثلاثة أيام مثل المالكية والشافعية وفي رواية أخرى عنهم إنه لا تجب الاستتابة)[1].

وهذا كله يهدم بجلاء قاعدة القول بالعذر بالجهل والشبهات، لأنهم يجرون عليه الحكم – أي يطلقون عليه الكفر – بمجرد وقوعه في الكفر، لا سيما إذا أشرك بالله ونقض أصل الدين ثم يمهلونه مدة لإزالة شبهته وتعليمه بعد جهله.

استتابة المرتد بسبب جهله

وقال الشوكاني رحمه الله (لا يخفى عليك ما تقرر في أسباب الردة من أنه لا يعتبر في ثبوتها العلم بمعنى ما قاله من جاء بلفظ كفري أو فعل فعلا كفريا)[2].

وقد نص الفقهاء على أن من خرج من الإسلام بغير علم مرتد غير أنه يستتاب قال الحافظ ابن حجر : (قال الطحاوي : ذهب هؤلاء إلى أن حكم من ارتد عن الإسلام حكم الحربي الذي بلغته الدعوة، فإنه يقاتل من قبل أن يدعى، قالوا : وإنما تشرع الاستتابة لمن خرج عن الإسلام لا عن بصيرة، فأما من خرج عن بصيرة فلا)[3].

1 – الفقه على المذاهب الأربعة –عبد الرحمن الجزيري – 373/5، 374.

2 – الدر النضيد ص 43.

3 – فتح الباري 281/12.

وقد ساق البخاري رحمه الله حديث الذين قالوا إن عليا ربهم في " باب حكم المرتد والمرتدة واستتابتهم " وكذلك الشوكاني قال في "نيل الأوطار" (واستُدل بالحديث المذكور في الباب على أنه يقتل الزنديق من غير استتابة، وتعقب بأنه وقع في بعض طرق الحديث أن أمير المؤمنين عليا رضى الله عنه استتابهم كما في الفتح من طريق عبد الله بن شريك العامري عن أبيه قال قيل لعلى : إن هنا قوما على باب المسجد يزعمون أنك ربهم فدعاهم، فقال لهم : ويلكم ما تقولون ؟ فقالوا أنت ربنا وخالقنا ورازقنا قال : ويلكم إنما أنا عبد مثلكم آكل الطعام كما تأكلون وأشرب كما تشربون .. قال الحافظ : إسناده صحيح)[1].

فهؤلاء ارتدوا لما اعتقدوه في على رضى الله عنه، وما أوقعهم في ذلك إلا الجهل، فاستتيبوا وليس ذلك إقامة للحجة التى يكفر تاركها، وإنما هى استتابة تدخل فيها إقامة الحجة في مثل هذا لأن اسم الشرك يجري عليهم بمجرد اغترافهم لما وقعوا فيه من الشرك.

ثم اعلم أن المناضلين عن المشركين حيثما وجدوا استتابة قالوا إنها إقامة للحجة ليعذروا صاحبها وهكذا في أحاديث المنتقصين من النبى صلى الله عليه وسلم يقولون عذرهم بجهلهم وهذه غفلة شديدة وخلاف ما قرره أهل العلم، ومثل هذا لا يعذر صاحبه وإن لم يقصده صاحبه كما حقق ذلك شيخ الإسلام في "الصارم المسلول"، وإنما عفا عنهم النبى صلى الله عليه وسلم، وله صلى الله عليه وسلم أن يعفو ويترك حقه وليس لنا إلا أن نستوفي حقه كاملا كما قرر ذلك وأحسن ابن القيم في أحكام أهل الذمة.

تنبيه

وهنا أذكرك أيها القارئ الكريم بمسألة مهمة وهى أن ترك الفرائض ليس كفرا لذاته إلا إذا كان مع العلم بها. وهكذا استحلال المحرمات وإنكار بعض الصفات فإن هذا مما يصح التوحيد مع الجهل به، ولكن بعد العلم به وإقامة الحجة عليه فإن مستحل الحرام كافر كتارك الفرائض ...

أما عبادة غير الله سبحانه وتعالى أو سبه أو سب النبى صلى الله عليه وسلم فهذا شرك وكفر لذاته ولو لم يكن مع العلم. ولذلك – لزيادة الإيضاح – لا نقول إن زيد بن عمرو بن نفيل فعل الكفر لجهله بالفرائض وعذر، وإنما نقول لم يفعل كفرا إطلاقا لأن ترك الفرائض إنما يكون كفرا ببلوغها وبعد العلم بها أو إمكانيته.

1 – نيل الأوطار 57/9.

ولذلك قال سفيان بن عيينة أثناء رده على المرجئة (وترك الفرائض متعمدا من غير جهل ولا عذر هو كفر)[1].

فقيد كون تركها كفرا بالعلم بها .

الحكم على المعين بالردة عند الفقهاء

قال أبو بطين في رده على سؤال جاء فيه هل يجوز تعيين إنسان بعينه بالكفر فقال (... إذا ارتكب شيئا من المكفرات فالأمر الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع العلماء على أنه كفر، مثل الشرك بعبادة غير الله سبحانه وتعالى، فمن ارتكب شيئا من هذا النوع أو جنسه فهذا لا شك في كفره. ولا بأس بمن تحققت منه شيئا من ذلك أن تقول كفر فلان بهذا الفعل يبين هذا أن الفقهاء يذكرون في باب حكم المرتد أشياء كثيرة، يصير بها المسلم كافرا ويفتتحون هذا الباب بقولهم: من أشرك بالله كفر.

وحكمه أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل، والاستتابة إنما تكون من معين.

ولما قال بعض أهل البدع عند الشافعي إن القرآن مخلوق، قال كفرت بالله العظيم.

كلام العلماء في تكفير المعين كثير، وأعظم أنواع الكفر الشرك بعبادة غير الله وهو كفر بإجماع المسلمين، ولا مانع من تكفير من اتصف بذلك، كما أن من زنى قيل فلان زان ومن رابى قيل فلان مراب)[2]

الفتوى (4400) من اللجنة الدائمة للإفتاء

إجابة على سؤال عن العذر بالجهل

(كل من آمن برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وسائر ما جاء به في الشريعة، إذا سجد بعد ذلك لغير الله من ولي وصاحب قبر أو شيخ طريق يعتبر كافرا مرتدا عن الإسلام مشركا مع الله غيره في العبادة ولو نطق بالشهادتين وقت سجوده بإتيانه لما ينقض قوله من سجوده لغير الله، لكنه قد يعذر لجهله فلا تنزل به العقوبة حتى يعلم وتقام عليه الحجة ويمهل ثلاثة أيام إعذارا إليه ليراجع نفسه عسى أن يتوب فإن أصر على سجوده لغير

1 - كتاب السنة لعبد الله بن أحمد 347/1، 348).

2 - الدرر السنية 416/10، 417.

الله بعد البيان قتل لردته، لقول النبي صلى الله عليه وسلم (من بدل دينه فاقتلوه) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما، فالبيان وإقامة الحجة للإعذار إليه قبل إنزال العقوبة به لا ليسمى كافرا بعد البيان، إنما يسمى كافرا بما حدث منه) إفتاء : عبد الله بن قعود وعبد الرزاق عفيفي وعبد العزيز بن باز.[1].

وهذا مبنى على ندرة وجود فعل السجود لغير العبادة فصرفه لأي معبود من دون الله شرك به سبحانه والولي وشيخ الطريقة يعبدهما الناس.

بخلاف ما إذا كان من الناس من يفعله للتحية والإكرام فإنه حينئذ يكون من الأمور المحتملة، فلا يكفر فاعله حتى يعلم أنه قصد به سجود العبادة.

وسيأتي الكلام عن هذه المسألة عند الكلام عن حديث معاذ رضي الله عنه، والرد على من وضعوا كلام الشوكاني رحمه الله في غير موضعه.

1 – فتاوى اللجنة الدائمة 220/1 .

التأويل

الكلام عن التأويل

الكلام عن الاجتهاد

الخطأ فيما كان عرضة للتأويل

العذر بالتأويل

2. التأويل المعتبر

الكلام عن التأويل

❖ تعريف التأويل

لغة: (التأويل مشتق من آل يؤول إذا رجع، نقول آل الأمر إلى كذا أي رجع إليه ومآل الأمر مرجعه، وقال النضر بن شميل إنه مأخوذ من الإيالة وهى السياسة، يقال لفلان علينا إيالة وفلان أيل علينا أي سائس، فكان المؤول بالتأويل كالمتحكم على الكلام المتصرف فيه، وقال ابن فارس في فقه العربية: التأويل آخر الأمر وعاقبته، يقال مآل هذا الأمر مصيره، واشتقاق الكلمة من الأول وهو العاقبة والمصير.

واصطلاحا: صرف الكلام عن ظاهره إلى معنى يحتمله، حمل الظاهر على المحتمل المرجوح، وهذا يتناول التأويل الصحيح والفاسد فإن أردت تعريف التأويل الصحيح زدت في الحد بدليل يصيره راجحا لأنه بلا دليل أو مع دليل مرجوح أو مساو فاسد، قال ابن برهان وهذا الباب أنفع كتب الأصول وأجلها ولم يزل الزال إلا بالتأويل الفاسد)[1].

❖ شروط التأويل

أولا: أن يكون موافقا لوضع اللغة أو عرف الاستعمال أو عادة صاحب الشرع، وكل تأول خرج عن هذا فليس بصحيح.

الثاني: أن يقوم الدليل على أن المراد بذلك اللفظ هو المعنى الذي حمل عليه إذا كان لا يستعمل كثيرا فيه.

الثالث: إذا كان التأويل بالقياس فلا بد أن يكون جليا لا خفيا وقيل أن يكون مما يجوز التخصيص به، على ما تقدم وقيل لا يجوز التأويل بالقياس أصلا.

❖ أقسام التأويل

والتأويل في نفسه ينقسم إلى ثلاثة أقسام قد يكون قريبا فيترجح بأدنى مرجح وقد يكون بعيدا فلا يترجح إلا بمرجح قوي وقد يكون متعذرا لا يحتمله اللفظ فيكون مردودا لا

1 – إرشاد الفحول ص 298، تحقيق أبي مصعب محمد سعيد البدري ، مؤسسة الكتب الثقافية الطبعة السابعة ، 1417هـ 1997م.

مقبولا، وإذا عرفت هذا تبين لك ما هو مقبول من التأويل مما هو مردود ولم يحتج إلى تكثير الأمثلة كما وقع في كثير من كتب الأصول)[1].

الكلام عن الإجتهاد

قال الشوكاني في " السيل الجرار": "الاجتهاد في اللغة مأخوذ من الجهد وهو المشقة والطاقة، فيختص بما فيه مشقة ليخرج عنه ما لا مشقة فيه.

قال الرازي في المحصول : هو في اللغة عبارة عن استفراغ الوسع في أي فعل كان. يقال استفرغ وسعه في حمل الثقيل ولا يقال استفرغ وسعه في حمل النواة، وأما في عرف الفقهاء، فهو استفراغ الوسع في النظر فيما لا يلحقه فيه لوم مع استفراغ الوسع فيه.

وهذا سبيل مسائل الفروع، وكذلك تسمى هذه المسائل مسائل الاجتهاد والناظر فيها مجتهدٌ، وليس هكذا حال الأصول)[2].

❖ متى يؤجر المجتهد

هناك شرطان لا بد من تحققهما:

1-أن يكون المجتهد عالما جامعا لآلة الاجتهاد عارفا بالأصول عالما بالإجماع ووجوه القياس فالجاهل ليس أهلا له.
2-أن يجتهد في الفروع الظنية المحتملة فالأصول ليست مجالا له.

قال أبو الطيب العظيم آبادي : (في شرح سنن أبي داود عند كلامه عن حديث (إذا اجتهد الحاكم فأصاب..) (قال الخطابي : إنما يؤجر المخطئ على اجتهاده في طلب الحق لأن اجتهاده عبادة، ولا يؤجر على الخطأ بل يوضع عنه الإثم فقط.

وهذا فيمن كان جامعا لآلة الاجتهاد عارفا بالأصول عالما بوجوه القياس، فأما من لم يكن محلا للاجتهاد فهو متكلف ولا يعذر بالخطأ بل يخاف عليه الوزر ويدل عليه قوله صلى الله (القضاة ثلاثة واحد في الجنة واثنان في النار) وهذا إنما هو في الفروع المحتملة

1 - إرشاد الفحول ص 300-301

2 - السيل الجرار ، ص 13، الطبعة الأولى في مجلد واحد ، دار ابن حزم.

للوجوه المختلفة دون الأصول التى هى أركان الشريعة وأمهات الأحكام التى لا تحمل الوجوه ولا مدخل فيها للتأويل فإن من أخطأ فيها كان غير معذور في الخطأ وكان حكمه في ذلك مردودا))[1].

وقال النووي في تعليقه على حديث: " إذا اجتهد الحاكم.." (أجمع المسلمون على أن هذا الحديث في حاكم عالم أُهل للحكم، فإن أصابه فله أجران، أجر باجتهاده وأجر بإصابته وإن أخطأ فله أجر باجتهاده، وفي الحديث محذوف تقديره إذا أراد الحاكم فاجتهد، قالوا فأما من ليس بأهل للحكم فلا يحل له الحكم فإن حكم فلا أجر له بل هو آثم ولا ينفذ حكمه سواء وافق أم لا. لأن اتفاقيته ليست صادرة عن أصل شرعى فهو عاص في جميع أحكامه سواء وافق الصواب أم لا، وهي مردودة كلها ولا يعذر في شيء من ذلك)[2].

الحق في أصول الدين واحد

قال الشوكاني في إرشاد الفحول : (المسألة السابعة: اختلفوا في المسائل التى كل مجتهد فيها مصيب والمسائل التي الحق فيها مع واحد من المجتهدين. وتلخيص الكلام في ذلك يحصل على فرعين:

الفرع الأول: العقليات وهي على أنواع

النوع الأول: ما يكون الغلط فيه مانعا من معرفة الله ورسوله كما في إثبات العلم بالصانع والتوحيد والعدل، قالوا فهذه الحق فيها واحد، فمن أصابه أصاب الحق ومن أخطأه فهو كافر.

النوع الثاني: مثل مسألة الرؤية وخلق القرآن وخروج الموحدين وما يشابه ذلك فالحق فيها واحد فمن أصابه فقد أصاب الحق، ومن أخطأه فقيل يكفر، ومن القائلين بذلك الشافعي، فمن أصحابه من حمله على ظاهره ومنهم من حمله على كفران النعمة.

النوع الثالث: إذا لم تكن المسألة دينية .... كما في تركيب الأجسام)[3].

1 - عون المعبود 9/488-489.

2 - شرح صحيح مسلم للنووي 12/13.

3 - إرشاد الفحول 433.

وقال أحمد بن عبد الرحمن حلولو في شرح: " جمع الجوامع" (لاخفاء أن المصيب في المسائل العقلية واحد وحكى ولي الدين عن الآمدي وغيره الإجماع على ذلك ثم إن المخطئ في المسائل العقلية إن أخطأ فيما لا يمنع من معرفة الله ومعرفة رسوله صلى الله عليه وسلم كما في مسائل الرؤية وخلق الأعمال فهو آثم من حيث عدل عن الحق، ومخطئ من حيث أخطأ الحق، ومبتدع من حيث قال قولا مخالفا للسلف الصالح، وإن أخطأ فيما يرجع إلى الإيمان بالله ورسوله كنفاة الإسلام من اليهود والنصارى، فهم مخطئون آثمون كافرون، وهذا مجمع عليه من علماء الأمة ولا فرق في ذلك بين المجتهد وغيره، ولا عبرة لمخالفة عمرو بن بحر الجاحظ وعبد الله بن الحسن العنبري في قولهما...)[1].

الخطأ في معرفة الله ووحدانيته

قال ابن منده: (باب ذكر الدليل على أن المجتهد المخطئ في معرفة الله ووحدانيته كالمعاند: قال تعالى مخبرا عن ضلالتهم ومعاندتهم: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾[2])[3].وهذا عين ما ذكره الطبري رحمه الله في "التبصير" : (صلى الله عليه وسلم 118).

وقال البغوي إن (الكافر الذي يظن أنه في دينه على الحق والجاحد والمعاند سواء)[4].

الخطأ في ما كان عرضة للتأويل

قال القاضي عياض: (وذهب عبيد الله بن الحسن العنبري إلى تصويب أقوال المجتهدين في أصول الدين فيما كان عرضة للتأويل، وفارق في ذلك فرق الأمة إذ أجمعوا سواه على أن الحق في أصول الدين واحد، والمخطئ فيه آثم عاص فاسق وإنما الخلاف في تكفيره)[5].

ومسائل أصول الدين التي هي عرضة للتأويل يطلقها العلماء على مسألة الإيمان قول وعمل وخلق القرآن والرؤية والصفات وغير ذلك.

---

1 - الضياء اللامع شرح جمع الجوامع 513/2.

2 - الكهف، الآية 103-104.

3 - كتاب التوحيد لابن منده 314/1.

4 - تفسير البغوي الطبعة الأولى في مجلد واحد ،ص 461.

5 - الشفا بتعريف حقوق المصطفى بشرح نور الدين القاري 393/5.

قال العظيم آبادي: (وقال عبد الرحمن أيضا: سألت أبي وأبا زرعة عن مذاهب أهل السنة في أصول الدين وما أدركنا السلف عليه وما يعتقدون من ذلك ؟

فقال: أدركنا العلماء في جميع الأمصار حجازا وعراقا ومصرا وشاما ويمنا فكان مذهبهم أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص والقرآن كلام الله غير مخلوق بجميع جهاته، والقدر خيره وشره من الله، وأن الله على عرشه بائن من خلقه كما وصف نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم بلا كيف، ﴿ أحاط بكل شيء علما ﴾ و " ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)[1].

فهذه الأصول التى هى عرضة للتأويل اختلف السلف في تكفير المخطئ فيها والحق أنه لا كفر فيما كان عرضة للتأويل، وإنما يأثم ويبدع المخطئ فيه.

أما الشرك بالله كدعاء الأموات من دون الله فيما لا يقدر عليه إلا الله والاعتكاف عند قبورهم وسكب العبرات أملا في كشف الكربات وقضاء الحوائج فهذا إخلال بالتوحيد الذي هو أصل الأصول.

ترك تكفير أهل البدع المقرين بالتوحيد

قال الشوكاني رحمه الله: (وأما المخطئ في الأصول المجتهد، فلا شك في تأثيمه وتفسيقه وتضليله واختلف في تكفيره وللأشعري قولان، قال إمام الحرمين وابن القشيري وغيرهما وأظهر مذهبه ترك التكفير وهو اختيار القاضى في كتاب " المتأولين" وقال ابن عبد السلام: رجع الإمام أبو الحسن الأشعري عند موته عن تكفير أهل القبلة لأن الجهل بالصفات ليس جهلا بالموصوف. قال الزركشى وكان الإمام أبو سهل الصعلوكى لا يكفر، فقيل له ألا تكفر من يكفرك فعاد إلى القول بالتكفير وهذا مذهب المعتزلة فهم يكفرون خصومهم ويكفر كل فريق منهم الآخر.

وقد حكى إمام الحرمين عن معظم أصحاب الشافعى ترك التكفير وقال إنما يكفر من جهل وجود الرب أو علم وجوده ولكن فعل فعلا أو قال قولا أجمعت الأمة على أنه لا يصدر ذلك إلا عن كافر."

1 – عون المعبود شرح سنن أبي داوود ، 48/13.

واعلم أن التكفير لمجتهدي الإسلام بمجرد الخطإ في الاجتهاد في شيء من مسائل العقل، عقبة كؤود لا يصعد إليها إلا من لا يبالي بدينه ولا يحرص عليه، لأنه مبنى على شفا جرف هار، وعلى ظلمات بعضها فوق بعض، وغالب القول به ناشئ عن العصبية وبعضه ناشئ عن شبه واهية ليست من الحجة في شيء ولا يحل التمسك بها في أيسر أمر من أمور الدين فضلا عن هذا الأمر الذي هو مزلة الأقدام ومدحضة كثير من علماء الإسلام)[1].

وقد جاء في حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله).

قال الحافظ: (وفيه دليل على قبول الأعمال الظاهرة والحكم بما يقتضيه الظاهر والاكتفاء في قبول الإيمان بالاعتقاد الجازم خلافا لمن أوجب تعلم الأدلة وقد تقدم مافيه، ويؤخذ منه ترك تكفير أهل البدع المقرين بالتوحيد الملتزمين بالشرائع)[2].

وأهل البدع إنما يطلقها العلماء على المتأولين في مسائل الوعد والوعيد والرؤية وخلق أفعال العباد وأشباه ذلك على تفصيل يراجع في محله.[3]

العذر بالتأويل

ومما تقدم نستخلص أنه لا كفر بالتأويل أي في تأويل ما كان عرضة للتأويل رغم إثم المتأول المخطئ في ذلك، أما في مسائل الفروع وهى محل الاجتهاد فإنه يعذر المجتهد المخطئ فيها بالتأويل ولا يأثم بل يؤجر على قدر نيته واجتهاده.

قال الحافظ في الفتح –كتاب الصلاة– في الحديث الذي رمى فيه أحدهم مالك بن الدخشم بالنفاق، في ذكر فوائد الحديث (ومنها أن من نسب من يظهر الإسلام إلى النفاق ونحوه بقرينة تقوم عنده لا يكفر بذلك ولا يفسق بل يعذر بالتأويل)[4].

1 – إرشاد الفحول ص 434.
2 – الفتح 252/1 الطبعة الأولى في ثلاث مجلدات.
3 – راجع منهاج السنة 60/3.
4 – فتح الباري 523/1.

وقال شيخ الإسلام (وإذا كان المسلم متأولا في القتال أو التكفير لم يكفر بذلك كما قال عمر بن الخطاب لحاطب بن أبي بلتعة: يا رسول الله : دعنى أضرب عنق هذا المنافق، ولم يُكفر النبي صلى الله عليه وسلم لا هذا ولا هذا بل شهد للجميع بالجنة..)[1].

أما من تأول فيما هو معلوم من الدين بالضرورة، نوع تأويل، فإنه يستتاب وإلا كُفِرَ وقُتل، ومثال هذا حادثة قدامة بن مظعون فقد روى عبد الرزاق أنه رأى جواز شرب الخمر لبعض الخواص مستدلا " بقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾[2].

وكان قد استعمله عمر على البحرين فشهدت عليه امرأته وأبو هريرة وغيرهما أنه شرب الخمر، فأحضره عمر وعزله فلما أراد أن يقيم عليه الحد استدل بالآية فقال له عمر إنه أخطأ التأويل، وأجمع الصحابة على أنه يستتاب هو وأصحابه فإن أقروا بحرمة الخمر أقيم عليهم حد الخمر وإن لم يقروا به كفروا، فرجعوا عن قولهم واتفق الصحابة على جلدهم ولم يكفروهم.

ومثل هؤلاء المتأولين قال فيهم ابن تيمية (يستتابون وتقام الحجة عليهم فإن أصروا كفروا حينئذ، ولا يحكم بكفرهم قبل ذلك كما لم يحكم الصحابة بكفر قدامة بن مظعون وأصحابه لما غلطوا فيما غلطوا فيه من التأويل)[3].

فمثل هذا ونحوه مما جاء في الصفات لا يكفر المخطئ فيه إلا بعد إزالة الشبهة وإقامة الحجة، أما ما يتعلق بتوحيد الله وإفراده بالعبادة فالمخطئ في ذلك كافر لا يعذر بما يدعى أنه تأويل، شأنه في ذلك شأن المحاربين لدين الله العابثين بحرماته المحلين لما حرم سبحانه، فإنهم ليسوا سوى متلاعبين بشرع الله مدعين للتأويل ولم يسلكوا مسالكه، وفي ذلك قال ابن الوزير: (لا خلاف في كفر من جحد ذلك المعلوم بالضرورة للجميع وتستر باسم التأويل فيما لا يمكن تأويله، كالملاحدة في تأويل جميع الأسماء الحسنى بل جميع القرآن والشرائع والمعاد الأخروي من البعث والقيامة والجنة والنار)[4].

---

1 - الفتاوى 284/3.

2 - المائدة الآية 93.

3 - الفتاوى 610/7.

4 - إيثار الحق على الخلق ص 415.

مانع الخطأ

الخطأ

رخصة الخطأ في الاجتهاد لمن حقق التوحيد

وصف العلماء للخطأ الذي يعذر صاحبه

3. مانع الخطأ

الخطأ

والمراد به انتفاء القصد الناتج عن سبق اللسان، وهنا لا بد من التفصيل فمن قال كلمة الكفر ولم يقصد الكفر كفر، أما من قالها وهو لا يقصدها أي لا يقصد معناها فهذا هو انتفاء القصد الذي لا شيء على صاحبه إطلاقا، ولا يخلط عليك ما مر في كتاب الردة.

ودليله ما جاء في صحيح مسلم من حديث أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضجع في ظلها قد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح)[1] فمثل هذا لا يكفر صاحبه باتفاق.

رخصة الخطأ في الاجتهاد لمن حقق التوحيد

أما الخطأ في الاجتهاد فقد تقدم الكلام عنه في مبحث التأويل، أما رخصة الخطأ في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾[2] وقوله سبحانه: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ ﴾[3] وفي حديث عمرو بن العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر وإذا اجتهد فأصاب فله أجران)[4]، فهي مخصصة بقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴾[5]. وهذا كحديث (بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا في معروف

1 - صحيح مسلم 2747.

2 - البقرة الآية 286.

3 - الأحزاب الآية 5.

4 - البخاري (7352) ومسلم (1716) وأبو داود (3574) وابن ماجه (2314).

5 - النساء الآية 28.

فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء الله عفا عنه وإن شاء عاقبه)[1].

قال الحافظ : (قال النووي: عموم هذا الحديث مخصوص بقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ فالمرتد إذا قتل على ارتداده لا يكون القتل كفارة له)[2].

فهذه الرخصة إنما هى لأهل القبلة بل إنه من السياق يعلم أنها فيما دون التوحيد وأصل الإيمان، يقول سبحانه: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾[3]. فمن لم يحقق هذا القدر من الإيمان فليس داخلا في الخطاب[4].

وقد نقل الشوكاني عن القرطبي في تفسير قول الله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾[5]، قال: (وهذا لم يختلف فيه أن الإثم مرفوع وإنما اختلف فيما يتعلق على ذلك من الأحكام، هل ذلك مرفوع ولا يلزم منه شيء أو يلزم أحكامه، ذلك كله اختلف فيه والصحيح أن ذلك يختلف بحسب الوقائع، فقسم لا يسقط باتفاق كالغرامات والديات والصلوات المفروضات، وقسم يسقط باتفاق كالقصاص والنطق بكلمة الكفر، وقسم ثالث مختلف فيه كمن أكل ناسيا في نهار رمضان أو حنث ساهيا و مثله مما يقع خطأ ونسيانا ويعرف ذلك في الفرع)[6].

فتأمل كيف نقل الاتفاق على عدم مؤاخذة من نطق بكلمة الكفر خطأ أي عن غير قصد لتدرك أنه من الخطأ حمل الآية على من أخطأ في اجتهاده ووقع في الكفر.

قال ابن جرير رحمه الله في تفسيره للآية: (فرغبة العبد إلى الله عز وجل بقول: ﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ فيما كان من نسيان منه لما أمر بفعله على هذا الوجه الذي وصفنا ما لم يكن تركه ما ترك من ذلك تفريطا منه فيه وتضييعا كفرا بالله – عز

1 – البخاري –كتاب الإيمان– 18.
2 – فتح الباري 87/1.
3 – البقرة الآية 285.
4 – راجع العذر بالجهل تحت المجهر الشرعي ص 214.
5 – البقرة الآية 286.
6 – فتح القدير ص 261.

وجل- فإن ذلك إذا كان كفرا بالله فإن الرغبة إلى الله في تركه المؤاخذة به غير جائزة، لأن الله – عز وجل – قد أخبر أنه لا يغفر لهم الشرك به، فمسألته فعل ما قد أعلمهم أنه لا يفعله خطأ وإنما تكون مسألته المغفرة فيما كان من مثل نسيانه القرآن بعد حفظه بتشاغله عنه وعن قراءته ومثل نسيانه صلاة أو صياما..)[1].

وقال البغوي في تفسيره للآية: (قال عطاء : إن نسينا أو أخطأنا يعنى إن جهلنا أو تعمدنا وجعله الأكثرون من الخطإ الذي هو الجهل والسهو، لأن ما كان عمدا من الذنب فغير معفو عنه بل هو في مشيئة الله، والخطأ معفو عنه)[2].

ومناط كلامه رحمه الله هو فيما دون الكفر بالله لأن قوله في الذنب المتعمد "هو في مشيئة الله" معلوم أنه ليس في الشرك بالله والكفر به فإن هذا ليس في المشيئة بل هو مما لا يغفره الله بخلاف ما دونه مما يغفره الله ويعفو عن الخطإ فيه لمن شاء.

وقال ابن تيمية عند كلامه عن حديث (إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ما لم تكلم به أو تعمل به) "والعفو عن حديث النفس إنما وقع لأمة محمد صلى الله عليه وسلم المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فعلم أن هذا العفو هو فيما يكون من الأمور التى لا تقدح في الإيمان، فأما ما نافى الإيمان فذلك لا يتناوله لفظ الحديث، لأنه إذا نافى الإيمان لم يكن صاحبه من أمة محمد صلى الله عليه وسلم في الحقيقة ويكون بمنزلة المنافقين، فلا يجب أن يعفى عما في نفسه من كلامه أو عمله وهذا فرق بيّن يدل عليه الحديث وبه تأتلف الأدلة الشرعية وهذا كما عفا الله لهذه الأمة عن الخطإ والنسيان وحديث النفس كما يخرجون من النار بخلاف من ليس معه الإيمان فإن هذا لم تدل النصوص على ترك مؤاخذته بما في نفسه وخطئه ونسيانه)[3].

وصف العلماء للخطإ الذي يعذر صاحبه

قال ابن القيم رحمه الله وقد قرر أن انتفاء القصد يمنع من التكفير مستدلا بقول حمزة للنبى صلى الله عليه وسلم (هل أنتم إلا أعبد لأبي) رواه البخاري في كتاب المغازي وكان قد شرب الخمر، قال ابن القيم (فلم يكفره صلى الله عليه وسلم بذلك وكذلك الصحابي الذي

1 – راجع العذر بالجهل تحت المجهر الشرعي لأبي يوسف مدحت آل فراج ، ص 215.

2 – تفسير البغوي ، الطبعة الأولى في مجلد واحد ص 185.

3 – الفتاوى 760/10.

قرأ: "قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون" وكان ذلك قبل تحريم الخمر، ولم يعد بذلك كافرا لعدم القصد، وجريان اللفظ على اللسان من غير إرادة لمعناه... فإياك أن تهمل قصد المتكلم ونيته وعرفه فتجني عليه وعلى الشريعة وتنسب إليها ما هي بريئة منه)[1].

وقد ذكر رحمه الله أن الله سبحانه (لم يرتب تلك الأحكام على مجرد ما في النفوس من غير دلالة فعل أو قول ولا على مجرد ألفاظ مع العلم بأن المتكلم بها لم يرد معانيها ولم يحط بها علما بل تجاوز للأمة عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل به أو تتكلم به وتجاوز لها عما تكلمت به مخطئة أو ناسية أو مكرهة أو غير عالمة به، إذا لم تكن مريدة لمعنى ما تكلمت به أو قاصدة إليه، فإذا اجتمع القصد والدلالة القولية أو الفعلية ترتب الحكم، هذه قاعدة شرعية وهي من مقتضيات عدل الله وحكمته ورحمته)[2]. وقال رحمه الله (ولو نطق بكلمة الكفر من لا يقصد معناها لم يكفر)[3].

وقال العز بن عبد السلام (فصل فيمن أطلق لفظا لا يعرف معناه لم يؤاخذ بمقتضاه) فقال: (... فإذا نطق الأعجمي بكلمة كفر أو إيمان أو طلاق أو عتاق أو بيع أو شراء أو صلح أو إبراء لم يؤاخذ بشيء من ذلك لأنه لم يلتزم مقتضاه ولم يقصد إليه)[4]. ويدخل في انتفاء القصد من قال كلمة الكفر قارئا أو شاهدا أو حاكيا لها لبيان ما فيها من الفساد.

1 - إعلام الموقعين 66/3.

2 - إعلام الموقعين 117/3.

3 - إعلام الموقعين 75/3.

4 - قواعد الأحكام في مصالح الأنام 102/2.

الإكراه

مانع الإكراه

شروط الإكراه

مسائل ليست من الإكراه

4. مانع الإكراه

قال تعالى : ﴿ مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾[1]، قال الطبري من كفر بالله بعد إيمانه إلا من أكره على الكفر فنطقه بكلمة الكفر بلسانه وقلبه مطمئن بالإيمان، موقن بحقيقة الإيمان صحيح عزمه، غير مفسوح الصدر بالكفر، لكن من شرح بالكفر صدرا، فاختاره وآثره على الإيمان وباح به طائعا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم)[2].

وقال ابن كثير (وسبب ذلك أنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا)[3].

قال ابن حزم : (ولما قال تعالى: ﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ ﴾ خرج من ثبت إكراهه عن أن يكون بإظهار الكفر كافرا إلى رخصة الله تعالى والثبات على الإيمان وبقي من أظهرالكفر لا قارئا ولا شاهدا ولا حاكيا ولامكرها على وجوب الكفر له بإجماع الأمة على الحكم له بالكفر وبحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك، وبنص القرآن على أن من قال كلمة الكفر إنه كافر، وليس قول الله عز وجل﴿ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ﴾ على ما ظنوه – يعنى المرجئة – من اعتقاد الكفر فقط بل كل من نطق بالكلام الذي يحكم لقائله عند أهل الإسلام بحكم الكفر لا قارئا ولا شاهدا ولا حاكيا ولا مكرها قفد شرح بالكفر صدرا بمعنى أنه شرح صدره لقبول الكفر المحرم على أهل الإسلام وعلى أهل الكفر أن يقولوه، وسواء اعتقدوه أو لم يعتقدوه، لأن هذا العمل من إعلان الكفر على غير الوجوه المباحة في إيراده وهو شرح الصدر به)[4].

وقال الشوكاني في تفسيره آية الإكراه : (إنما صح استثناء المكره من الكافر مع أنه ليس بكافر لأنه ظهر منه بعد الإيمان ما لا يظهر إلا من الكافر لولا الإكراه .

---

1 – النحل الآية 106 ، 107.

2 – تفسير الطبري 182/14.

3 – تفسير ابن كثير 525/4.

4 – الفصل في الملل والأهواء والنحل 249/3 – 250.

قال القرطبي : أجمع أهل العلم على أن من أكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان ولا تبين منه زوجته.

ولا يحكم عليه بحكم الكفر، وحكى عن محمد بن الحسن أنه إذا أظهر الكفر كان مرتدا في الظاهر وفيما بينه وبين الله على الإسلام، وتبين منه امرأته ولا يصلى عليه إن مات ولا يرث أباه إن مات مسلما وهذا القول مردود على قائله مدفوع بالكتاب والسنة، وذهب الحسن البصري والأوزاعى والشافعى وسحنون إلى أن هذه الرخصة المذكورة في هذه الآية إنما جاءت في القول وأما في الفعل فلا رخصة، مثل أن يكره على السجود لغير الله ويدفعه ظاهر الآية فإنها عامة في من أكره من غير فرق بين القول والفعل، ولا دليل لهؤلاء القاصرين للآية على القول، وخصوصا السبب لا اعتبار به مع عموم اللفظ كما تقرر في علم الأصول)[1].

❖ سبب نزول الآية

نزلت في عمار بن ياسر رضى الله عنه، أخذه المشركون فلم يتركوه حتى سب النبى صلى الله عليه وسلم وذكر آلهتهم بخير ثم تركوه، فلما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (ما وراءك) قال : شرٌّ يا رسول الله، ما تركوني حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير، فقال (كيف تجد قلبك) ؟ قال مطمئنا بالإيمان، قال (إن عادوا فعد)، رواه ابن جرير (122/24) وابن سعد (249/3) والبيهقى والحاكم وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وذكر الحافظ ابن حجر له طرقا مرسلة ثم قال (وهذه المراسيل يقوي بعضها بعضا)[2].

ونقل في الفتح أيضا (314/12) أن ابن بطال قال تبعا لابن المنذر : (أجمعوا على أن من أكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل فكفر وقلبه مطمئن بالإيمان أنه لا يحكم عليه بالكفر ..)

شروط الإكراه

قال الحافظ (شروط الإكراه أربعة :

1 - فتح القدير – الطبعة الأولى في مجلد واحد – ص 976.

2 - الفتح 312/12.

1- أن يكون فاعله قادرا على إيقاع ما يهدد به، والمأمور عاجزا عن الدفع ولو بالفرار،

2- أن يغلب على ظنه أنه إذا امتنع أوقع به ذلك،

3- أن يكون مهددا فوريا فلو قال إن لم تفعل كذا ضربتك غدا لا يعد مكرها، ويستثنى ما إذا ذكر زمنا قريبا جدا، أو جرت العادة بأنه لا يُخلف.

4- أن لا يظهر من المأمور ما يدل على اختياره.

ولا فرق بين الإكراه على القول والفعل عند الجمهور، ويستثنى من الفعل ما هو محرم على التأبيد، كقتل النفس بغير حق)[1].

قال على بن محمد الخازن في تفسيره (قال العلماء يجب أن يكون الإكراه الذي يتلفظ به معه بكلمة الكفر، أن يعذب بعذاب لا طاقة له به مثل التخويف بالقتل والضرب الشديد، والإيلامات القوية مثل التحريق بالنار ونحوه... وأجمعوا أيضا على أن من أكره على الكفر لا يجوز له أن يتلفظ بكلمة الكفر تصريحا، بل يأتي بالمعاريض وبما يوهم أنه كفر، فلو أكره على التصريح يباح له ذلك بشرط طمأنينة القلب على الإيمان، غير معتقد ما يقوله من كلمة الكفر، ولو صبر حتى قتل كان أفضل لفعل ياسر وسمية وصبر بلال على العذاب)[2].

مسائل ليست من الإكراه

أما إذا كان للمسلم الاختيار ولو فيما دون الكفر – إلا ما لا يبيحه الإكراه – فإنه يجب عليه الأخذ به، إذ يخرج من حيز الإكراه على الكفر، وهذا كما عرضه قوم شعيب على شعيب والذين آمنوا معه من الخروج من قريتهم أو العودة في ملتهم قال سبحانه وتعالى: ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاء اللهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾[3]. فلا يشرع الوقوع في الكفر والحالة هذه يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا

1 - فتح الباري 12/ 311 ، 312.

2 - تفسير الخازن 117/4.

3 - الأعراف الآية 88 ، 89.

أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاس كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاء نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾[1]. وهكذا الضرورة التى تفرض على المسلم نوعا من التنازلات لاستضعافه وقلة حيلته، فإن مجرد تلك الضرورة لا تبيح الوقوع في الكفر ما لم يُكرَه عليه بالشروط المذكورة.

1 - العنكبوت الآية 10.

الممتنعين

1. الفرد له حكم الطائفة في الممتنعين
2. تكفير الممتنعين قبل تبين الشروط وانتفاء الموانع
3. احتمال وجود مانع من التكفير لا يصرف الحكم الظاهر عن الممتنعين

1. الفرد له حكم الطائفة في الممتنعين

يقول الله سبحانه: ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾[2]. وقال سبحانه: ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾[3]. وقال سبحانه: ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾[4].

إلى غير ذلك من الآيات التي لم يفرق الله سبحانه فيها بين تابع ومتبوع، ذلك لأن المتبوع ما كان ليتمكن من الفساد في الأرض والصد عن سبيل الله إلا بجنده التابعين له.

وكونها واردة في كفار أصليين لا يمنع من إنزالها على المرتدين الذين نقضوا إيمانهم باغترافهم الكفر ووقوعهم في الضلال البعيد.

ومعلوم أن الصحابة الكرام إنما قاتلوا أنصار أئمة الردة لاتباعهم لأئمتهم ونصرتهم لهم، لا لأنهم اختاروهم وتبينوا اكتمال الشروط وانتفاء الموانع في حقهم.

قال شيخ الإسلام (والطائفة إذا انتصر بعضها ببعض حتى صاروا ممتنعين فهم مشتركون في الثواب والعقاب... فأعوان الطائفة الممتنعة وأنصارها منها فيما لهم وعليهم... لأن الطائفة الممتنعة بعضها ببعض كالشخص الواحد)[5]

---

1 - غافر الآية 47 ، 48.

2 - سبأ الآية 31 ، 32.

3 - القصص الآية 8.

4 - القصص الآية 40.

5 - الفتاوى 28/ 311 ، 312 باختصار.

وهذه فتوى في هذه المسألة صادرة عن اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء في السعودية رقم: (9247).

السؤال: ما حكم عوام الروافض الإمامية الإثنى عشرية، وهل هناك فرق بين علماء أي فرقة من الفرق الخارجة عن الملة وبين أتباعها من حيث التكفير أو التفسيق ؟

الجواب: (الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه وبعد : (فإن من شايع من العوام إماما من أئمة الكفر والضلال، وانتصر لسادتهم وكبرائهم بغيا وعدوا حكم له بحكمهم كفرا وفسقا، قال الله تعالى: ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ... ﴾ إلى قوله: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾[1] واقرأ الآية 165، 166، 167 من سورة البقرة والآية رقم 28، 29 من سورة الفرقان، الآيات رقم 62، 63، 64 من سورة القصص والآيات رقم 31، 32، 33 من سورة سبإ والآيات رقم 20 حتى 36 من سورة الصافات والآيات 47 حتى 50 من سورة غافر وغير ذلك في الكتاب والسنة كثير.

ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قاتل رؤساء المشركين وأتباعهم وكذلك فعل أصحابه ولم يفرقوا بين السادة والأتباع، وبالله التوفيق. وصلى على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم) عبد الله بن قعود وعبد الله بن غديان وعبد الرزاق عفيفي وعبد العزيز بن باز (فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث والإفتاء 267/2، 268 جمع : أحمد بن عبد الرزاق الدويش).

2. تكفير الممتنعين قبل الشروط وانتفاء الموانع

قال شيخ الإسلام في فتواه في التتار (إذا كان السلف قد سموا مانعي الزكاة مرتدين مع كونهم يصومون ويصلون ولم يكونوا جماعة من المسلمين، فكيف بمن صار مع أعداء الله ورسوله قاتلا للمسلمين ؟)[2].

وقد جاء في حديث طارق بن شهاب قال (جاء وفد بزاخة إلى أبي بكر يسألونه الصلح، فخيرهم بين الحرب المجلية والسلم المخزية، فقالوا: هذه المجلية قد عرفناها فما المخزية ؟ قال : تنزع منكم الحلقة والكراع، ونغنم ما أصبنا منكم وتردون علينا ما أصبتم منا وتدون قتلانا وتكون قتلاكم في النار وتتركون أقواما يتبعون أذناب الإبل حتى يري الله خليفة رسول

1 - الأحزاب الآيات 23-24-25-26-27-28.

2 - الفتاوى 289/28.

الله والمهاجرين أمرا يعذرونكم به، فعرض أبو بكر ما قال على القوم، فقام عمر فقال، قد رأيت رأيا سنشير عليك، أما ما ذكرت من الحرب المجلية والسلم المخزية فنعم ما ذكرت، وأما ما ذكرت أن نغنم ما أصبنا منكم وتردون ما أصبتم منا فنعم ما ذكرت وأما ما ذكرت تدون قتلانا وتكون قتلاكم في النار، فإن قتلانا قاتلت فقتلت على أمر الله، أجورها على الله ليس لها ديات، قال فتتابع القوم على ما قال عمر)[1].

قال الحافظ في الفتح (210/13) (قال الحميدي : اختصره البخاري فذكر طرفا منه وهو قولهم (يتبعون أذناب الإبل إلى قوله : يعذرونكم)، وأخرجه بطوله البرقاني بالإسناد الذي أخرج البخاري ذلك القدر منه ثم قال الحافظ : (وقوله قتلاكم في النار) أي لا ديات لهم في الدنيا لأنهم ماتوا على شركهم فقتلوا بحق فلا دية لهم، وقوله (وتتركون) بضم أوله و(يتبعون أذناب الإبل) في رعايتها لأنهم إذا نزعت منهم آلة الحرب رجعوا أعرابا في البوادي، لا عيش لهم إلا ما يعود عليهم من منافع إبلهم، قال بن بطال : كانوا ارتدوا ثم تابوا، فأوفدوا رسلهم إلى أبي بكر، يعتذرون إليه فأحب أبو بكر ألا يقضي بينهم إلا بعد المشاورة في أمرهم فقال لهم : ارجعوا واتبعوا أذناب الإبل في الصحاري. اهـ

والذي يظهر أن المراد بالغاية التي أنظرهم إليها أن تظهر توبتهم وصلاحهم بحسن إسلامهم)[2]، فهؤلاء أتباع طليحة بن خويلد وكذلك أنصار مسيلمة تغنم أموالهم وتسبى نساؤهم ويشهد على قتلاهم أنهم في النار وعلى هذا أجمع الصحابة الكرام رضي الله عنهم، والمقتول شخص معين لا يشهد على أنه في النار إلا إذا كان مقطوعا بكفره.

3. احتمال وجود مانع من التكفير لا يصرف الحكم الظاهر عن الممتنعين

وقد اعتبر النبي صلى الله عليه وسلم العباس كافرا وأجرى عليه حكم الكفار في أخذ الفداء، ولم يعتبر دعوى الإكراه التي ادَّعى، فقد أخرج البخاري من حديث ابن شهاب عن أنس أن رجالا من الأنصار استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عباس فداءه، قال :(والله لا تذرون منه درهما).

1 - رواه البرقاني ورواه البخاري مختصرا (7221.

2 - فتح الباري 211/12.

قال الحافظ ابن حجر : (قوله " إن رجالا من الأنصار " أي ممن شهد بدرا كما سيأتي وكان المشركون أخرجوه معهم إلى بدر ... أخرج ابن إسحاق من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (يا عباس : افد نفسك وابني أخويك عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث، وحليفك عتبة بن عمرو فإنك ذو مال، قال إني كنت مسلما ولكن القوم استكرهوني قال صلى الله عليه وسلم إن كنت كما تقول حقا إن الله يجزيك، ولكن ظاهر أمرك أنك كنت علينا)[1].

ومن المعلوم عند أهل العلم أن من خرج من الكفار لقتال المسلمين حكم عليه بالكفر في الظاهر وإن كان احتمال إكراهه واردا.

قال شيخ الإسلام : (وقد يقاتلون وفيهم مؤمن يكتم إيمانه، يشهد القتال معهم ولا يمكنه الهجرة، وهو مكره على القتال، ويبعث يوم القيامة على نيته، كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (يغزوا جيش هذا البيت فبينما هم ببيداء من الأرض إذ خسف بهم فقيل يا رسول الله وفيهم المكره، قال يبعثون على نياتهم) **وهذا في ظاهر الأمر وإن قتل وحكم عليه بما يحكم على الكفار، فالله يبعثه على نيته، كما أن المنافقين منا يحكم لهم في الظاهر بحكم الإسلام ويبعثون على نياتهم**، والجزاء يوم القيامة على ما في القلوب لا على مجرد الظواهر ولهذا روي أن العباس قال يا رسول الله كنت مكرها قال : "أما ظاهرك فكان علينا وأما سريرتك فإلى الله ") [2].

تنبيه

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من أحدث حدثا أو آوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين)[3].

قال ابن القيم رحمه الله : (ومن أعظم الحدث تعطيل كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإحداث ما خالفهما ونصر من أحدث ذلك والذب عنه ومعاداة من دعا إلى كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم)[4].

---

1 – فتح الباري (322/7). والحديث رواه أحمد في المسند (353/1).

2 – الفتاوى 224/19 ، 225.

3 – رواه أبو داوود (4530) والنسائي بإسناد حسن.

4 – إعلام الموقعين 405/3.

ومن تأمل حال أئمة الردة والضلال في هذه الزمان وجدهم متصفين بتلك الصفات وأكثر، فاعلم رحمك الله أن تكفيرهم وتكفير أنصارهم وأتباعهم لا يتوقف على اكتمال الشروط وانتفاء الموانع لحدة شوكتهم وامتناعهم.

شبهات حول العذر بالجهل والتأويل

1. شبهة أن الضلال لا يكون إلا بعد البيان
2. قصة الحواريين
3. حديث القدرة
4. حديث ذات أنواط
5. حديث سجود معاذ
6. حديث عائشة في صفة العلم
7. حديث حذيفة في جهل الفرائض

شبهات حول العذر بالجهل والتأويل

رد المتشابه إلى المحكم

قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾[1]، قال ابن كثير في تفسيرها (يخبر الله تعالى أن في القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب أي بينات واضحة الدلالة لا التباس فيها على أحد ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم، فمن رد ما اشتبه إلى الواضح منه وحكم محكمه على متشابهه عنده فقد اهتدى ومن عكس انعكس)[2].

وقد روت عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (...إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم)[3]. وما أحسن ما قاله أبو قلابة : (لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تحدثوهم، فإني لا آمن أن يغمروكم في ضلالتهم، أو يلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون)[4].

1. شبهة أن الضلال لا يكون إلا بعد البيان

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللّهَ بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[5]. قالوا هذا يدل على أن الضلال لا يكون إلا بعد البيان والكلام على هذا من وجوه.

الضلال المعذب عليه

1 – آل عمران الآية 7.

2 – تفسير ابن كثير 344/1.

3 – البخاري 4547.

4 – سير أعلام النبلاء للذهبي 472/4.

5 – التوبة الآية 115.

قال سبحانه: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾[2].

قال الشوكاني رحمه الله(أي وإن كانوا من قبل بعثته فيهم في شرك وذهاب عن الحق)[3].

فالناس قبل بلوغ الرسالة إليهم ضالون وبيان هذا جلي في الكتاب والسنة ولكنهم لا يعذبون على ذلك إلا بعد قيام الحجة الرسالية.

وقال سبحانه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[4] فهذا الضلال هو المستوجب للعذاب لقيام الحجة، مع أن القوم قبل ذلك كانوا ضلالا، لا أنهم إنما ضلوا – سموا ضالين – بعد الرسالة.

وهكذا الضلال المذكور في الآية هو الضلال المستوجب للعذاب، ولذلك فسر قوله (ليضل) ب : ليعذب . قال الضحاك في تفسير الآية: (وما كان الله ليعذب قوما حتى يبين لهم ما يأتون وما يذرون)[5].

الجهل سبب الضلال

قال سبحانه: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللّهُ افْتِرَاء عَلَى اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾[6].

وقال سبحانه: ﴿ لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ ﴾[1]. قال الشوكاني رحمه الله (أي قالوا هذه المقالة ليحملوا أوزارهم

---

1 – البقرة الآية 198.

2 – الجمعة الآية 2.

3 – فتح القدير في مجلد واحد ص 1778.

4 – إبراهيم الآية 4.

5 – تفسير البغوي في مجلد وحد ص 586.

6 – الأنعام الآية 140.

كاملة، لم يكفر منها شيء لعدم إسلامهم الذي هو سبب لتكفير الذنوب، وقيل إن اللام هى لام العاقبة لأنهم لم يصفوا القرآن بكونه أساطير لأجل أن حملوا الأوزار، ولكن لما كان عاقبتهم ذلك حسن التعليل به، كقوله تعالى ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾[2]، وقيل لام الأمر ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ أي ويحملون بعض أوزار الذين يضلونهم ومحل (بغير علم) النصب على الحال من فاعل يضلونهم أي يضلون الناس جاهلين غير عالمين بما يدعونهم إليه، ولا عارفين بما يلزم من الآثام، وقيل إنه حال من المفعول أي يضلون من لا علم له، ومثل هذه الآية: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾[3])[4].

وقد جاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إن الله لا يقبض العلم إذا انتزعه انتزاعا، وإنما يقبضه بموت العلماء حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤوساً جهالا، فسألوهم فأفتوهم بغير علم فضلوا وأضلوا). فتبين أن الجهل كان سببا لضلالهم.

وقد بوب البخاري بابا في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيحه : باب إثم من دعا إلى ضلالة أو سن سنة سيئة لقول الله تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ ﴾[5].

وقد روى مسلم وأبو داوود والترمذي من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا)[6].

---

1 - النحل الآية 25.

2 - القصص الآية 8.

3 - العنكبوت الآية 13.

4 - فتح القدير في مجلد واحد 963.

5 - النحل الآية 25.

6 - مسلم 2674.

قال البغوي في قوله تعالى: ﴿يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (بغير حجة فيصدونهم عن الإيمان ﴿أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ ﴾ ما يحملون). ثم ساق بسنده حديث أبي هريرة[1] .

مناط الآية

قال الشوكاني : (لمانزلت الآية المتقدمة في النهى عن الاستغفار للمشركين خاف جماعة ممن كان يستغفر لهم، العقوبة من الله بسبب ذلك الاستغفار، فأنزل الله سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ ﴾ أي أن الله سبحانه لا يوقع الضلال على قوم، ولا يسميهم ضلالا بعد أن هداهم للإسلام والقيام بشرائعه ما لم يُقدموا على شيء من المحرمات بعد أن تبين لهم ذلك فلا إثم عليهم ولا يؤاخذون به، ومعنى: ﴿ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ حتى يبين لهم ما يجب عليهم اتقاؤه من محرمات الشرع: ﴿ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ مما يحل لعباده ويحرم عليهم، ومن سائر الأشياء التي خلقها)[2].

فإن من دخل الإسلام محققا التوحيد الذي هو أصله، لا يسمى ضالا بسبب ما غاب عنه من الشريعة ولا يؤاخذ بذلك في الدنيا ولا في الآخرة، لأنه إنما دخل في الإسلام بالتوحيد لا بغيره من الفرائض، فإذا كان جاهلا التوحيد مدعيا الإسلام فلا ينفعه مجرد ادعائه الإسلام.

قال ابن كثير في تفسير الآية (115، التوبة) : (إنه سبحانه لا يضل قوما إلا بعد إبلاغ الرسالة إليهم حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة كما قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[3] .

قال ابن جرير : يقول الله تعالى : وما كان الله ليقضى عليكم في استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلال بعد إذ رزقكم الهداية ووفقكم للإيمان به وبرسوله، حتى يتقدم إليكم بالنهي عنه فتتركوا، فأما قبل أن يبين لكم كراهية ذلك بالنهي عنه، ثم لا تتعدوا نهيه إلى ما

1 – تفسير البغوي في مجلد واحد ص 707.

2 – فتح القدير في مجلد واحد ص 740 ، 741.

3 – فصلت الآية17.

نهاكم عنه، فإنه لا يحكم عليكم بالضلال، فإن الطاعة والمعصية إنما يكونان في المأمور والمنهي وأما من لم يؤمر ولم ينه فغير كائن مطيعا أو عاصيا فيما لم يؤمر به أو ينه عنه)[1].

فتبين أن مناط الآية متعلق بالأمر والنهى المتوجه لمن حقق التوحيد، فما كان الله ليؤاخذ بفعل منهي عنه أو ترك مأمور به إلا بعد البيان وإقامة الحجة.

ثم إن الجهل ليس مانعا من الضلال والعذاب بل هو سبب لهما لا سيما إذا كان صاحبه غير عاجز. قال ابن تيمية رحمه الله (ولفظ الضلال إذا أطلق تناول من ضل عن الهدى سواء كان عمدا أو جهلا ولزم أن يكون معذبا كقوله: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾[3])[4].

2. قصة الحواريين

قال تعالى: ﴿ إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مآئدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾[5] .

قال البغوي : (قرأ الكسائى " هَلْ تَسْتَطِيعُ " بالتاء " رَبُّكَ " بنصب الباء هى قراءة على وعائشة وابن عباس ومجاهد، أي هل تستطيع أن تدعو وتسأل ربك وقرأ الآخرون " يَسْتَطِيعُ " بالياء و" رَبُّكَ " برفع الباء، ولم يقولوه شاكين بقدرة الله عز وجل ولكن معناه : هل ينزل ربك أم لا كما يقول الرجل لصاحبه هل تستطيع أن تنهض معى وهو يعلم أنه يستطيع، وإنما يريد هل يفعل ذلك أم لا وقيل يستطيع بمعنى يطيع يقال أطاع واستطاع بمعنى واحد، كقوله أجاب واستجاب، معناه هل يطيعك ربك بإجابة سؤالك ؟ وفي الآثار من أطاع الله أطاعه الله.

---

1 - مختصر تفسير ابن كثير 166/2.

2 - الأحزاب الآية 67-68.

3 - طه الآية 123.

4 - الفتاوى 166/7.

5 - المائدة الآية 113.

وأجرى بعضهم على الظاهر فقالوا غلط القوم وقالوه قبل استحكام المعرفة وكانوا بشرا، فقال لهم عيسى عليه السلام عند الغلط استعظاما لقولهم (اتقوا الله إن كنتم مؤمنين) أي لا تشكوا في قدرته)[1].

فيا للعجب من نقول بعض من ينتصر لعذر الجاهلين، فينقل ما قيل من أنهم غلطوا في قولهم وكان ذلك قبل استحكام المعرفة ويترك ما رجحه هذا الإمام المفسر محيي السنة من أنهم لم يشكوا في قدر ة الله بناء على القراءة الأخرى وأقوال الصحابة وغيرهم ..

جهل بعض الصفات

وقد مر بنا مذهب ابن جرير الطبري رحمه الله في جهل الصفات حيث يقول بكفر من يجهل بعض الصفات قال رحمه الله (لا يسع أحدا بلغ حد التكليف الجهل بأن الله جل ذكره عالم له علم وقادر له قدرة ومتكلم له كلام وعزيز له عزة وأنه خالق وأنه لا محدث إلا مصنوع مخلوق، وقلنا من جهل ذلك فهو كافر)[2]، ولذلك قال رحمه عن الحواريين : (وأما قوله: ﴿قَالَ اتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإنه يعني قال عيسى للحواريين القائلين له ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء قَالَ اتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ راقبوا قول الله أيها القوم وخافوه أن ينزل بكم من الله عقوبة على قولكم هذا، فإن الله لا يعجزه شيئ أراده، وفي شككم في قدرة الله على مائدة من السماء كفر به فاتقوا الله أن ينزل بكم نقمة ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يقول إن كنتم مصدقي على ما أتوعدكم به من عقوبة الله إياكم على قولكم ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء ﴾)[3]

قول ابن حزم

وقد جعل ابن حزم جهلهم قدرة الله على إنزاله مائدة من السماء مما لا يكفر صاحبه، إلا إذا علم أن الأنبياء جاؤوا به ثم كذبهم كما قال الدهلوي وابن الوزير في قصة الرجل الذي جهل سعة قدرة الله عز وجل كما سيأتي قريبا.

1 – تفسير البغوي في مجلد واحد ص 407.

2 – التبصير ص 149.

3 – تفسير الطبري 253/11.

قال ابن حزم (فهؤلاء الحواريون الذين أثنى الله عز وجل عليهم، قد قالوا بالجهل لعيسى عليه السلام، هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ ولم يبطل إيمانهم، وهذا ما لا مخلص منه وإنما كانوا يكفرون لو قالوا ذلك بعد قيام الحجة وتبينهم لها)[1].

والقوم لم يشكوا في قدرة الله كما قال البغوي وروي عن الصحابة وغيرهم.

وقال الطبري إنهم شكوا في قدرة الله وظاهر مذهبه أنهم كفروا فاستتيبوا في قوله : ﴿ اتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وقال عامة العلماء إنهم شكوا في قدرة الله على ما ظنوه محالا، وجعلوه من الصفات التي يعذر صاحبها ولا يكفر إلا بعد قيام الحجة.

ولم يقل أحد منهم أنهم جهلوا أن الله قادر وعذروا بجهلهم، وكيف يجهل الموحد أن الله قادر، وهو ما يطعن في الألوهية في الصميم ؟ وكيف يعقل أن يعبد أحد معبودا لا يقدر على شيء ؟ فالعاجز ليس له خلق ولا ملك ولا أمر، كيف يعتبر فضلا عن أن يعبد ويخشى ؟

3. حديث القدرة

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (قال رجل لم يعمل حسنة قط لأهله، إذا مات فحرقوه ثم اذروا نصفه في البر ونصفه في البحر، فو الله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذابا لا يعذبه أحدا من العالمين، فلما مات الرجل فعلوا ما أمرهم فأمر الله البر فجمع ما فيه وأمر البحر فجمع ما فيه ثم قال لم فعلت هذا ؟ قال من خشيتك يا رب وأنت أعلم فغفر الله له)[2] وهو حديث متواتر جاء عن أبي هريرة وأبي سعيد وحذيفة وغيرهم.

تأويل العلماء للحديث

قال النووي (اختلف العلماء في تأويل هذا الحديث، فقالت طائفة : لا يصح حمل هذا الحديث على أنه أراد نفي قدرة الله، فإن الشاك في قدرة الله تعالى كافر، وقد قال في

1 - الفصل 253/3.

2 - البخاري –كتاب التوحيد - 7506 ، مسلم –كتاب التوبة – 2756 .

آخر الحديث : إنه إنما فعل هذا من خشية الله تعالى والكافر لا يخشى الله تعالى ولا يغفر له، قال هؤلاء فيكون له تأويلان:

أحدهما : أن معناه لئن قدر عليَّ العذاب أي قضاه، يقال من قدر بالتخفيف وقدر بالتشديد بمعنى واحد.

الثاني: أن قدر بمعنى ضيق، على قال الله تعالى: ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾[1] وهو أحد الأقوال في قوله تعالى: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[2].

قالت طائفة: اللفظ على ظاهره ولكن قاله هذا الرجل وهو غير ضابط لكلامه ولا قاصد لحقيقة معناه ومعتقد لها بل قاله في حالة غلب عليه الدهش والخوف وشدة الجزع بحيث ذهب تيقظه وتدبر ما يقول فصار في معنى الغافل والناسى وهذه الحالة لا يؤاخذ فيها، وهو نحو قول القائل الآخر الذي غلب عليه الفرح حين وجد راحلته (أنت عبدي وأنا ربك) فلم يكفر بذلك الدهش والسهو .

وقد جاء في هذا الحديث في غير مسلم (فلعلي أضل الله) أي أغيب عنه، وهذا يدل على أن قوله " لئن قدر الله " على ظاهره.

وقالت طائفة هذا من مجاز كلام العرب وبديع استعمالها يسمونه مزج الشك باليقين كقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾[3] فصورته صورة الشك والمراد به اليقين .

وقالت طائفة هذا الرجل جهل صفة من صفات الله، واختلف العلماء في تكفير جاهل الصفة، قال القاضي عياض وممن كفره بذلك ابن جرير الطبري، وقال به أبو الحسن الأشعري أولا، وقال آخرون لا يكفر بجهل الصفة، ولا يخرج به عن اسم الإيمان بخلاف جحدها، وإليه رجع أبو الحسن الأشعري وعليه استقر قوله، لأنه لم يعتقد ذلك اعتقادا

1 - الفجر الآية 16.

2 - الأنبياء الآية 87.

3 - سبأ الآية 24.

يقطع بصوابه ويراه دينا وشرعا، وإنما يكفر من اعتقد أن مقالته حق، وقال هؤلاء ولو سئل الناس لوجد العالم بها قليلا.

وقالت طائفة : كان هذا الرجل في زمن فترة حين ينفع مجرد التوحيد ولا تكليف قبل ورود الشرع على المذهب الصحيح لقوله تعالى: ﴿ مَّن اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [1].

وقالت طائفة يجوز أنه كان في زمن، شرعهم فيه جواز العفو عن الكافر بخلاف شرعنا، وذلك من مجوزات العقول عند أهل السنة، وإنما منعناه في شرعنا بالشرع وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴾[2] وغير ذلك من الأدلة والله أعلم)[3].

دلالة تأويل العلماء للحديث

ولما كان ظاهر هذا الحديث مشكلا اضطر العلماء إلى تأويله ومن المعلوم أن العلماء لا يلجأون إلى التأويل إلا عند الضرورة. ويسعون إليه عند وجود موجبه كأن (يكون ظاهر النص مخالفا لقاعدة مقررة معلومة من الدين بالضرورة أو مخالفا لنص أقوى منه سندا)[4].

وقد بوب مسلم رحمه الله في صحيحه فقال : (باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا)

وقال النووي بعد أن قرر أنه لا (يخلد في النار من مات على التوحيد ولو عمل من المعاصى ما عمل، كما أنه لا يدخل الجنة أحد مات على الكفر ولو عمل من أعمال البر ما عمل ...فإذا تقررت هذه القاعدة، حمل عليها جميع ما ورد من أحاديث الباب وغيرها، فإذا ورد حديث في ظاهره مخالفة وجب تأويله عليها ليجمع بين نصوص الشرع)[5]

1 - الإسراء الآية 15.

2 - النساء الآية 48.

3 - شرح مسلم 7470/7.

4 - أصول الفقه لمحمد أبي زهرة ص 107 وراجع الموافقات (9/3 ، 10 ، 261 ، 261).

5 - شرح مسلم 217/1.

قال الحافظ (وأظهر الأقوال أنه قال ذلك في حال دهشته وغلبة الخوف عليه حتى ذهب تعقله لما يقول، ولم يقله قاصدا لحقيقة معناه، بل في حالة كان فيها كالغافل والذاهل والناسى الذي لا يؤاخذ بما يصدر منه، وأبعد الأقوال قول من قال : إنه كان في شرعهم جواز المغفرة للكافر)[1]، وما ذهب إليه الحافظ فيه نظر ولا سيما والحديث في سعة رحمة الله وعلى كل حال فتأويل العلماء لهذا الحديث أكبر دليل على أنه ليس من قواعدهم العذر بالجهل لمن وقع في الكفر بالله وإلا لقالوا إنه وقع في الكفر وعذر بالجهل وكفوا مشقة التأويل.

الرجل موحد لم يجهل قدرة الله

ولو كان الرجل جاهلا قدرة الله لما اضطر إلى أمرهم بما فعلوه، وإنما كان يكفيه أن يدفنوه بهيأته ويقول (لئن قدر الله على ليعذبنى) وقد روى الإمام أحمد الحديث بسند صحيح وزاد (لم يعمل خيرا قط إلا التوحيد)، والنزاع إنما هو في جاهل التوحيد

وفي رواية عند مسلم (فإننى لم أبتهر عند الله خيرا، وإن الله يقدر أن يعذبنى)[2]، فقد دل هذا على أن الرجل لم يجهل قدرة الله على بعثه وعذابه قال النووي : (وإن الله يقدر على أن يعذبنى) هكذا هو في معظم النسخ ببلادنا، ونقل اتفاق الرواة والنسخ عليه هكذا بتكرير "إن" وسقطت لفظة "أن" الثانية في بعض النسخ المعتمدة، فعلى هذا تكون إن الأولى شرطية، وتقديره إن قدر الله على عذبنى، وهو موافق للرواية السابقة، وأما على رواية الجمهور وهي إثبات أن الثانية مع الأولى فاختلف في تقديره ..

ويجوز أن يكون على ظاهره كما ذكر هذا القائل لكن يكون قوله هنا معناه أن الله قادر على أن يعذبنى إن دفنتموني بهيأتي، فأما إن سحقتموني وذريتموني في البر والبحر فلا يقدر علي، ويكون جوابه كما سبق، وبهذا تجتمع الروايات والله أعلم)[3].

جاهل قدرة الله على فعل الممتنعات يُعذر مع إقراره

فالرجل إنما جهل قدرة الله على فعل الممتنعات، والممتنعات خارجة عن نطاق القدرة فلا تعلم إلا بالشرع .

---

1 - فتح الباري 604/6.

2 - مسلم 2757 .

3 - شرح مسلم 17/ 38 ، 84.

قال الدهلوي إن هذا الرجل الذي ذكر في الحديث : (**استيقن بأن الله متصف بالقدرة التامة،** لكن القدرة إنما هى في الممكنات لا في الممتنعات، وكان يظن أن جمع الرماد المتفرق نصفه في البر ونصفه في البحر ممتنع، فلم يجعل ذلك نقصا، فأخذ بقدر ما عنده من العلم ولم يعد كافرا)[1].

قال ابن حزم (...فهذا إنسان جهل إلى أن مات أن الله عز وجل يقدر على جمع رماده وإحيائه، وقد غفر له لإقراره وخوفه وجهله)[2] فهذا ما ظنه الرجل من الممتنعات، أما القول إنه جهل قدرة الله مطلقا فهو محض جهل، إذ كيف يعقل أن يخاف الرجل من عاجز لا يقدر على شيء ؟ .

وقد ذكر ابن القيم في معرض حديثه عن حكم من جحد فرضا من فرائض الإسلام فقال (أما من جحد ذلك جهلا أو تأويلا، يعذر فيه صاحبه، كحديث الذي جحد قدرة الله وأمر أهله أن يحرقوه ويذروه في الريح ومع هذا فقد غفر له الله ورحمه لجهله، إذا كان ذلك الذي فعله مبلغ علمه، ولم يجحد قدرة الله على إعادته عنادا أو تكذيبا)[3].

وقال ابن الوزير (وإنما أدركته الرحمة لجهله وإيمانه بالله والمعاد، ولذلك خاف العقاب، **وأما جهله بقدرة الله على ما ظنه محالا فلايكون كفرا، إلا لو علم أن الأنبياء جاؤوا بذلك،** وأنه ممكن مقدور ثم كذبهم أو أحدا منهم لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[4] وهذا أرجى حديث لأهل الخطإ في التأويل) [5].

4. حديث ذات أنواط

عن أبي واقد الليثى قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين ونحن حديثوا عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عليها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط، فمررنا بسدرة فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال

1 - حجة الله البالغة 60/1.

2 - الفصل3/252.

3 - مدارج السالكين 367/1.

4 - الإسراء الآية 15.

5 - إيثار الحق على الخلق 436.

صلى الله عليه وسلم (الله أكبر قلتم والذي نفسى بيده كما قالت بنو إسرائيل ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ لتركبن سنن من قبلكم)[1]

دلالة الحديث

وقد نص العلماء الكبار على أن القوم طلبوا مجرد المشابهة، فأرادوا شجرة للتبرك بها وطلب النصر، ولذلك ساق محمد بن عبد الوهاب هذا الحديث في باب من تبرك بشجر أو حجر أو نحوهما، واستفاد منه مسائل منها : (

- الثالثة : كونهم لم يفعلوا ...
- السابعة : أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يعذرهم بل رد عليهم بقوله : الله أكبر إنها السنن لتتبعن سنن من كان قبلكم، فغلظ الأمر بهذه الثلاث.
- الحادية عشرة : أن الشرك فيه أكبر وأصغر لأنهم لم يرتدوا بهذا.
- الرابعة عشرة : سد الذرائع). [2]

فهذا نص منه رحمه الله على أن القوم إنما فعلوا الشرك الأصغر، وإنما غلظ النبى صلى الله عليه وسلم لأن ما طلبوه ذريعة إلى الشرك المخرج من الملة، فسد النبي صلى الله عليه وسلم تلك الذريعة.

قال أبو بكر الطرطوشى في الحوادث والبدع : فانظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس ويعظمونها ويرجون البرء والشفاء من قبلها ويضربون بها المسامير والخرق فهي ذات أنواط فاقطعوها)

وكل هذه الأمور دون الشرك الأكبر، وهذه هي حقيقة ذات أنواط.

ومن المعلوم أن التشبيه يأتي للتغليظ كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم (مدمن الخمر كعابد وثن)[3].

---

1 - أخرجه الترمذي وصححه (2180) ورواه أحمد (218/5) و عبد الرزاق و ابن أبي عاصم في السنة (76).

2 - كتاب التوحيد ص 137 ، 138 مجموعة التوحيد.

3 - رواه ابن ماجه – كتاب الأشربة (3375) السلسلة الصحيحة (677) عن أبي هريرة.

كما أن المشبه لا يماثل المشبه به في جميع الصفات وإنما في صفة منها أو بعضها، وقد قال جرير بن عبد الله البجلى كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال (سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته ...الحديث)[1] فالتشبيه هنا إنما هو في الرؤية والوضوح لا في الشكل.

وهكذا فإن طلب هؤلاء هو كطلب بنى إسرائيل في مشابهة المشركين، إلا أن هذا الطلب هو مشابهتهم في الشرك الأصغر وأما طلب بني إسرائيل ففي مشابهتهم في الشرك الأكبر .

وكم آل مثل هذا الطلب إلى الوقوع في الشرك الأكبر، ولذلك عبر عنه بما يؤول إليه لسد الذريعة دونه، كما غلظ رسول الله صلى الله عليه وسلم على من قال له (ما شاء الله وشئت فقال : أجعلت لله ندا)[2] لما قد يؤول إليه من الوقوع في الشرك الأكبر.

معرفة القوم للا إله إلا الله

وكيف يدخل قوم من العرب الإسلام ولا يعرفهم النبى صلى الله عليه وسلم إلههم الذي أسلموا له، أو يؤخر عنهم بيان ما افترض الله عليهم في الحال من كلمة التوحيد لا سيما وقد فهم المشركون معنى هذه الكلمة، فقال الله تعالى عنهم : ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [3] ذلك لأن القرآن نزل بلسانهم لإقامة الحجة عليهم وقطع العذر عنهم فقال سبحانه: ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[4] فكيف يدرك معنى كلمة التوحيد من كفر ويجهله من آمن ؟

أقوال المحققين

وهذا فهم العلماء الواضح وقولهم الموافق لقواعد الشريعة.

---

1 - رواه البخاري 554 ومسلم 633 وأبو داود 4729 والترمذي 2551.

2 - رواه أحمد (224/1) وصححه أحمد شاكر، والبخاري في الأدب المفرد (783) والنسائي في عمل اليوم والليلة (988) وابن ماجه (2117) وفي سنده الأجلح رواه عن يزيد بن الأصم عن ابن عباس ، وفي الأجلح كلام وحديثه حسن ، وحسن الحديث الألباني.

3 - ص الآية 5.

4 - فصلت الآية 3.

قال الشاطبي وهو يتكلم عن اتباع أهل الكتاب في بدعهم : (فقوله حتى تأخذ أمتي بما أخذ القرون قبلها) يدل على أنها تأخذ بما أخذوا به إلا أنه لا يتعين في الإتباع لهم اتباع أعيان بدعهم، بل قد تتبعها في أعيانها وتتبعها في أشباهها فالذي يدل على الأول قوله (لتتبعن سنن من كان قبلكم ..الحديث) فإنه قال فيه (لو دخلوا جُحر ضَبٍ خرب لتبعتموهم) والذي يدل على الثاني قوله فقلنا يا رسول الله : اجعل لنا ذات أنواط، فقال عليه السلام : هكذا كما قالت بنو إسرائيل اجعل لنا إلها) الحديث، فإن اتخاذ ذات أنواط يشبه اتخاذ الآلهة من دون الله لا أنه هو نفسه، فلذلك لا يلزم الاعتبار بالمنصوص عليه ما لم ينص عليه مثله من كل وجه والله أعلم)[1]

فتأمل قوله : (فإن اتخاذ ذات أنواط يشبه اتخاذ الآلهة من دون الله لا أنه هو نفسه) ثم انظر إلى ما يدعيه المناضلون عن الجهال المخلطون على أهل الضلال.

وقال ابن تيمية رحمه الله : (ولما كان للمشركين شجرة يعقلون بها أسلحتهم ويسمونها ذات أنواط فقال بعض الناس: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال : الله أكبر قلتم كما قال قوم موسى لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، إنها السنن، لتركبن سنن من كان قبلكم، فأنكر النبي صلى الله عليه وسلم مجرد مشابهتهم الكفار في اتخاذ شجرة يعكفون عليها معلقين عليها أسلحتهم فكيف بما هو أطم من ذلك من مشابهتهم المشركين أو هو الشرك بعينه)[2]، فهذا شيخ الإسلام ينص على أنهم طلبوا مجرد مشابهة الكفار في اتخاذ شجرة يعكفون عليها ويعلقون عليها أسلحتهم، ولم يطلبوا الشرك بعينه، فما للقوم يعدلون عن فهم الأئمة المحققين إلى تقليد من هو دونهم، والقول بما تأباه نصوص الشرع وقواعده.

5. حديث سجود معاذ

روى ابن ماجه (1853) من حديث عبد الله بن أبي أوفى قال : لما قدم معاذ من الشام سجد للنبي صلى الله عليه وسلم قال : قال (ما هذا يا معاذ ؟) قال : أتيت الشام فوافقتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم فوددت في نفسي أن أفعل ذلك بك، فقال صلى الله عليه سلم (لا تفعلوا فإني لو أمرت أحدا أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد

1 - الاعتصام 245/2 ، 246.

2 - إقتضاء الصراط المستقيم ص 314.

لزوجها ... الحديث) (السلسة الصحيحة 1203). فقال القوم إن معاذا عبد النبي صلى الله عليه وسلم بهذا السجود، ولكنه عذره بجهله.

سجود التحية

وقد ذهب العلماء المحققون وعامة المفسرين إلى أن سجود التحية كان مشروعا وأن سجود معاذ للنبي صلى الله عليه وسلم كان على سبيل التحية، كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾[1] . فقد نقل ابن كثير عن المفسرين (قالوا : كان هذا سجود تحية وسلام وإكرام كما قال تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾[2]، وقد كان هذا مشروعا في الأمم السابقة لكنه نسخ في ملتنا، قال معاذ قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لأساقفتهم وعلمائهم، فأنت يا رسول الله أحق أن يسجد لك فقال (لو كنت آمرا بشرا أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها) ورجحه الرازي. قال بعضهم بل كانت السجدة لله وآدم قبلة فيها كما قال تعالى: ﴿ أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾[3] وفي هذا التنظير نظر. والأظهر أن القول الأول أولى، والسجدة لآدم إكراما وإعظاما واحتراما وسلاما وهي طاعة لله عز وجل لأنها امتثال لأمره تعالى)[4].

وقال الشوكاني رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ "وفي هذه الآية فضيلة لآدم عليه السلام عظيمة حيث أسجد الله له الملائكة، وقيل إن السجود كان لله ولم يكن لآدم، وإنما كانوا مستقبلين له عند السجود، ولا ملجأ لهذا فإن السجود للبشر قد يكون جائزا في بعض الشرائع بحسب ما تقتضيه المصالح، وقد دلت هذه الآية على أن السجود لآدم، وكذلك الآية الأخرى أعني قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ

1 - البقرة الآية 34.

2 - يوسف الآية 100.

3 - الإسراء الآية 78.

4 - تفسير ابن كثير 121/1.

سَاجِدِينَ ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا ﴾ فلا يستلزم تحريمه لغير الله في شرعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أن يكون كذلك في سائر الشرائع)[2].

وقال رحمه الله في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا ﴾ (أي الأبوان والإخوة والمعنى أنهم خروا ليوسف سجدا، وكان ذلك جائزا في شريعتهم منزلا منزلة التحية، وقيل لم يكن ذلك سجودا بل هو مجرد إيماء، وكانت تلك تحيتهم ..)[3]

وقال رحمه الله في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ ﴾. وفيه دليل على أن المأمور به هو السجود لا مجرد الانحناء كما قيل، وهذا السجود سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة، ولله أن يكرم من يشاء من مخلوقاته كيف يشاء بما يشاء وقيل كان السجود لله تعالى وكان آدم قبلة لهم[4].

علم معاذ بالتوحيد

ومن المعلوم أن معاذا رضى الله عنه كان من أعلم الصحابة رضى الله عنهم لا سيما وقد اختاره رسول الله صلى الله عليه وسلم لمناظرة أهل الكتاب ودعوتهم إلى الدين، فعن ابن عباس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث معاذا إلى اليمن وقال له (إنك ستأتي قوما أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ...الحديث)[5].

قال الحافظ في الفتح : (قوله " إنك ستأتي قوما أهل كتاب" هى التوطئة للوصية لتستجمع همته عليها، لكون أهل الكتاب أهل علم في الجملة فلا تكون العناية في مخاطبتهم كمخاطبة الجهال من عبدة الأوثان)[6].

وقال القرطبي في المفهم : (وإنما نبهه على هذا ليتهيأ لمناظرتهم ويعد الأدلة لإفحامهم لأنهم أهل علم سابق بخلاف المشركين وعبدة الأوثان)[1].

---

1 - الحجر الآية 29.

2 - فتح القدير قي مجلد واحد ص 81.

3 - فتح القدير ص 870.

4 - فتح القدير ص 926 .

5 - رواه البخاري (1496) ومسلم (29).

6 - فتح الباري 419/3.

فهل يعقل أن يختار النبي صلى الله عليه وسلم من بين أصحابه من يعذر بجهله للتوحيد ليناظر أهل علم وجدل على قدر أهل الكتاب ؟

سجود معاذ كان للتحية

ومما سبق ندرك أن سجود معاذ رضى الله عنه لم يكن على وجه العبادة وإنما كان على وجه التحية والإكرام، وقد كان ذلك مشروعا في الشرايع السابقة ثم نسخ في شريعتنا، واستدل العلماء كابن كثير والقرطبي وغيرهما على ذلك بحديث معاذ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (ولا يجوز أن يتنفل على طريقة العبادة إلا لله وحده لا للشمس ولا للقمر ولا لملك ولا لنبي ولا لصالح ولا لقبر نبي ولا لصالح هذا في جميع الملل، وقد ذكر ذلك في شريعتنا حتى نهى أن نتنفل على وجه التحية والإكرام للمخلوقات ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم معاذا أن يسجد له وقال : (لوكنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها) ونهى عن الانحناء في التحية ونهاهم أن يقوموا خلفه في الصلاة وهو قاعد)[2].

قال الشوكاني عند كلامه عن السجود لغير الله : (فلا بد من تقييده بأن يكون بسجوده هذا قاصدا لربوبية من سجد له، فإنه بهذا السجود قد أشرك بالله عز وجل، وأثبت معه إلها آخر، وأما إذا لم يقصد إلا مجرد التعظيم كما يقع كثيرا لمن دخل على ملوك الأعاجم أنه يقبل الأرض تعظيما له فليس هذا من الكفر في شيء وقد علم كل من كان من الأعلام أن التكفير بالإلزام من أعظم مزالق الأقدام)[3].

فالشوكاني رحمه الله يقول بكفر من سجد سجود عبادة لغير الله لقصده ربوبية من سجد له، ولم يقيد ذلك بالعلم بكونه كفرا.

أما قوله في حديث معاذ : (وفي الحديث دليل على أن من سجد لغير الله جاهلا لم يكفر)[4]، فلأنه قد يجهل الشخص أن سجود التحية منهي عنه فيسجد قاصدا التحية

---

1 - المفهم شرح صحيح مسلم 181/1.

2 - الفتاوي 74،75/1 .

3- السبيل الجرار : الطبعة الأولى في مجلد واحد ص 979 في فصل الردة.

4 - نيل الأوطار 234/6.

والإكرام، فيعذر لوجود الاحتمال، لا أنه عبد غير الله على جهل، وليس من هذا الباب السجود لصنم أو معبود أيا كان لأن ذلك لا يحتمل غير العبادة.

ولذلك جاء في فتاوى اللجنة الدائمة

(كل من آمن برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وسائر ما جاءه به الشرع إذا سجد بعد ذلك لغير الله من ولى وصاحب قبر أو شيخ طريق يعتبر كافرا مرتدا عن الإسلام مشركا مع الله غيره في العبادة ولو نطق بالشهادتين وقت سجوده، بإتيانه لما ينقض قوله من سجوده لغير الله، لكنه قد يعذر لجهله فلا تنزل به العقوبة حتى يعلم وتقام عليه الحجة، ويمهل ثلاثة أيام إعذارا إليه ليراجع نفسه، عسى أن يتوب فإن أصر على سجوده لغير الله بعد البيان قتل لردته، لقول النبي صلى الله عليه وسلم (من بدل دينه فاقتلوه) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما، فالبيان وإقامة الحجة للإعذار إليه قبل إنزال العقوبة به، لا ليسمى كافرا بعد البيان، فإنه يسمى كافرا بما حدث منه)[1].

نسخ سجود التحية بحديث معاذ ودلالته

قال البغوي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾[2] (قوله "ا سجدوا" فيه قولان : الأ صح أن السجود كان لآدم على الحقيقة وتضمن معنى الطاعة لله عز وجل بامتثال أمره، وكان ذلك سجود تعظيم وتحية لا سجود عبادة، كسجود إخوة يوسف له في قوله عز وجل ﴿ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا ﴾ ولم يكن فيه وضع الوجه على الأرض إنما كان انحناء، فلما جاء الإسلام، أبطل ذلك بالسلام.

وقيل معنى قوله: ﴿ اسْجُدُواْ لآدَمَ ﴾ (أي إلى آدم، فكان آدم قبلة والسجود لله، كما جعلت الكعبة قبلة للصلاة والصلاة لله عز وجل)[3]. وقال في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا ﴾ : (يعنى يعقوب وخالته وإخوته، وكانت تحية الناس يومئذ [لملوكهم] السجود ولم يُرد بالسجود وضع الجباه على الأرض، وقيل وضعوا الجباه على الأرض وكان

1 – إفتاء عبد الله بن قعود عبد الرزاق عفيفي وعبد العزيز بن باز فتوى رقم (4400) فتاوى اللجنة الدائمة 220/1).

2 – البقرة الآية 34.

3 – تفسير البغوي في مجلد واحد ص 26.

ذلك على طريق التحية والتعظيم لا على وجه العبادة، وكان ذلك جائزا في الأمم السابقة، فنسخ في هذه الشريعة) [1].

فهذه أقوال العلماء في أن سجود التحية كان معروفا ومشروعا ولكنه نسخ في هذه الشريعة، فيا ترى بم نسخ ؟ الجواب أنه نسخ بحديث معاذ مما يدل على أن سجود معاذ كان للتحية فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك كما ذكر القرطبي وابن تيمية وأشار إليه ابن كثير وغير واحد.

6. حديث عائشة في صفة العلم

وفيه أنها انطلقت على إثر النبي صلى الله عليه وسلم حتى جاء البقيع ثم سبقته إلى بيته واضجعت، ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم (فلتخبريني أو ليخبرني اللطيف الخبير، قالت قلت يا رسول الله بأبي أنت وأمي، فأخبرته، قال فأنت السواد الذي رأيت أمامي قلت نعم، فلهدها في صدرها، لهدة أوجعتها ثم قال أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله قالت : (مهما يكتمه الناس يعلمه الله ... الحديث)[2]. فقال القوم إن عائشة رضى الله عنها شكت في علم الله والشاك جاهل، والحق الذي لا ريب فيه هو أن قولها "نعم" تقرير للعلم وأبعد ما يكون من الشك.

قال النووي رحمه الله في شرح مسلم : (قالت مهما يكتم الناس يعلمه الله نعم... هكذا هو في الأصول وهو صحيح وكأنها لما قالت : مهما يكتم الناس يعلمه الله صدقت نفسها فقالت نعم)[3].

الرسول صلى الله عليه وسلم لا يقر على باطل ولا يؤخر البيان عن وقت الحاجة

إنه لا يتصور أن تكون عائشة رضى الله عنها قد شكت في علم الله سبحانه ثم لا تجد من النبي صلى الله عليه وسلم أدنى لوم ولا أخف بيان لما وقعت فيه.

---

1 - تفسير البغوي ص 663.

2 - رواه مسلم في صحيحه، - كتاب الجنائز – باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها (975).

3 - شرح النووي لصحيح مسلم 44/7.

وقد أنكر النبي صلى الله عليه وسلم أشد الإنكار على الذين قالوا : "اجعل لنا ذات أنواط" وكانوا حديثي عهد بكفر، كما أنكر على الذي قال : (ما شاء الله وشئت) فقال : (أجعلت لله ندا).

فكيف لا ينكر على زوجه وأقرب الناس إليه ويبين لها الحق، وقد نقل العلماء الاتفاق على أنه لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة.

قال ابن قدامة : (ولا خلاف في أنه لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة)[1].

وقال الشوكاني : (قال ابن السمعاني : لا خلاف في امتناع تأخير البيان عن وقت الحاجة إلى الفعل، ولا خلاف في جوازه إلى وقت الفعل)[2].

فإذا كان الأمر كذلك فلا يتصور ألا يبين النبي صلى الله عليه وسلم ما هو فوري الامتثال كأمور العقائد، مما يدل على عدم وقوع عائشة رضي الله عنها في محذور يحتاج إلى بيان وهذا جلي لا يخفى.

7. حديث حذيفة

واحتج القوم أيضا بحديث حذيفة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب حتى لا يدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة وليسرى على كتاب الله تعالى في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من الناس، الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة، يقولون أدركنا آباءنا على هذه الكلمة : لا إله إلا الله فنحن نقولها). فقال صلة بن زفر فما تغنى عنهم "لا إله إلا الله "وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة ؟ فأعرض عنه حذيفة فردد ها ثلاثا كل ذلك يعرض عنه حذيفة، ثم أقبل عليه في الثالثة، فقال : (يا صلة تنجيهم من النار، تنجيهم من النار)[3].

وفيه دليل على العذر بالجهل فيما دون التوحيد في "بعض الأمكنة أو الأزمنة حيث ينتشر الجهل ويضعف نور النبوءة فيخفى على بعض الناس كثير من الأحكام الظاهرة

---

1 – روضة الناظر وجنة المناظر ص 96.

2 – إرشاد الفحول ص 173 .

3 – رواه ابن ماجه (4049) ورواه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم وأورده الألباني في الصحيحة (87).

المتواترة كوجوب الصلاة والصوم، ولكن لا بد من الإقرار الذي عليه مدار النجاة، لأنه بدون الإقرار لا يكونون مسلمين)[1].

وأعجب كل العجب من قوم يجادلون عن المشركين الذين يعبدون غير الله على جهل محتجين بهذا الحديث، وهذه غفلة شديدة لأننا إنما نتكلم عن جاهل التوحيد، كالذي يقع في عبادة غير الله، كدعاء الأموات في الشدة والرخاء فأين ترك الصلاة وغيرها من الفرائض لا ندارس العلم من ذلك؟.

والحديث إنما هو في عذر المحقق للتوحيد غير المتمكن من العلم وهذا جلى، ولذلك قال حذيفة إنها تنجيهم من النار ومعلوم أنه لا ينجو بها إلا من علم معناها وعمل بمقتضاها، كما تقدم في حقيقه التوحيد. و إلا لزم القول بما يقوله المرجئة من أن مجرد النطق بها يكفي، مع أن في سند الحديث متهما بالإرجاء.

1 - نواقض الإيمان الاعتقادية 231/1.

أمثلة للإيضاح

1. شرك الدعاء والاستغاثة
2. تولي الكافرين من دون المؤمنين

1. شرك الدعاء والاستغاثة

❖ الفرق بين الدعاء والاستغاثة

والاستغاثة هى طلب الغوث وهو إزالة الشدة[1]، والفرق بينها وبين الدعاء أن الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب كما قال تعالى: ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ [2]. وقال: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّ مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾[3]. والدعاء أعم من الاستغاثة لأنه يكون من المكروب وغيره.

الدعاء نوعان

والدعاء نوعان دعاء عبادة ودعاء مسألة وهما متلازمان وكلاهما شرك، فهو سبحانه يدعى للنفع والضر دعاء المسألة ويدعى خوفا ورجاء دعاء عبادة.

❖ دعاء العبادة

يقول سبحانه في دعاء العبادة: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [4]، فثبت أن الدعاء من أجل العبادة وأكرمها على الله سبحانه وتعالى، وأن الشرك في الدعاء هو أكبر شرك المشركين، قال سبحانه: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا * فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾[5]. وقال سبحانه: ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ [6]، أي لا تعبدوا مع الله

---

1 - تيسير العزيز الحميد ص214.

2 - القصص الآية 15.

3 - الأنفال الآية 9.

4 - غافر الآية 61.

5 - راجع تيسير العزيز الحميد ص 219.

6 - الجن الآية 18.

أحدا، وقال: ﴿ ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾[1]. ومثل هذا كثير جدا في كتاب الله تعالى.

❖ دعاء المسألة

وقال تعالى في دعاء المسألة: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ [2]، وقال سبحانه: ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاء لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ ﴾ [3]. وقال: ﴿ قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً ﴾[4]. وقال: ﴿ وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [5].

شبهة واهية

من الناس من يعذر المستغيثين عند القبور بغير الله، ذلك لأنهم يجهلون أن الدعاء عبادة، ولو علموا ما صرفوا دعاءهم لغير الله لخوفهم من الشرك.

ويضيف هؤلاء أنه لما نص الشرع على أن الدعاء عبادة، كان ذلك من الخبريات التي يجب إقامة الحجة بتبليغها قبل إجراء الأحكام لأنها لا تدرك بالفطرة وهذا جهل وغفلة وتخليط لا يقع فيه إلا من لم يفرق بين دعاء العبادة ودعاء المسألة.

وإذا سلمنا جدلا كونه يجهل أن الدعاء عبادة فهل يجهل وهو يسأل المدعو صفات الربوبية التي تفرد بها الله سبحانه وتعالى الذي له الخلق والملك والأمر، والتي أقر بها المشركون ؟

---

1 - الأعراف الآية 55.

2 - الأنعام الآية 40، 41.

3 - الرعد الآية 14.

4 - الإسراء الآية 56.

5 - يونس الآية 106.

وماذا يريد هذا المستغيث من المستغاث به ؟ أم يا ترى يجهل أنه مخلوق ليس له خلق ولامُلك ولا ينفع ولا يضر وليس له من الأمر شيء ؟ وما حكمه إذا كان يجهل ذلك ؟ يقول سبحانه وتعالى: ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ [1]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [2]، وقال: سبحانه ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾[3].

المشركون يلجأون إلى الله في الشدة

وقد كان المشركون يخلصون الدعاء عند الشدائد قال سبحانه: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾[4]، ولم يكسبوا إيمانا بدعائهم لله وحده في الشدة قال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ [5].

أما هؤلاء فإنهم يريدون من الموتى كشف الكربات وقضاء الحوائج ويدعونهم في الشدة والرخاء، وقد وبخ الله سبحانه المشركين بقوله: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [6].

وقد كانوا يعلمون أن ذلك لله وحده وأن آلهتهم ليس لها شيء من ذلك ولهذا احتج سبحانه وتعالى عليهم بذلك الإقرار منهم أنه هو الإله الحق وأن إلهية ما سواه باطلة.

إسم الإسلام دون حقيقته لا ينفع

1 - فاطر الآية 13.
2 - العنكبوت الآية 17.
3 - الملك الآية 20.
4 - العنكبوت الآية 65.
5 - الإسراء الآية 67.
6 - النمل الآية 62.

إنك يا أخا الإيمان إذا تذكرت أن المناضلين عن المشركين ـ أعني الجهال الذين لم يفهموا أقوال العلماء – يكادون ينسبون إلى الإسلام كل من ادعاه وإن أتى الشرك الصراح والكفر البواح عن جهل وتقليد واتباع للشبهات، أدركت خطورة قواعدهم الباطلة ومذهبهم الفاسد على الدعوة إلى التوحيد الخالص.

فالقبوريون المستغيثون بالأموات المتمسحون بالعتبات.آملين قضاء الحاجات وتفريج الكربات، متقربين بالذبائح والنذور متضرعين إلى القبور، هم عندهم من المسلمين لنطقهم بالشهادتين وأدائهم فرائض الإسلام، ولا يكفرون في أحكام الدنيا والآخرة حتى تقام عليهم الحجة بأن فعلهم شرك، وتزال عنهم الشبهة التي دفعتهم إليه، وهذه والله بلية عظمى، فما الفرق بين هؤلاء القبوريين وعبدة الأوثان من قريش غير الاسم.

قال العلامة الصنعاني : (**النذر بالمال على الميت ونحوه والنحر على القبر والتوسل به وطلب الحاجات منه، هو بعينه الذي كانت تفعله الجاهلية**، وإنما كانوا يفعلونه لما يسمونه وثنا وصنما، وفعله في القبوريون لما يسمونه وليا وقبرا ومشهدا، والأسماء لا أثر لها ولا تغير المعاني، ضرورة لغوية وعقلية وشرعية، فإن من شرب الخمر وسماها ماءً ما شرب إلا خمرا ..)[1].

وقال العلامة الشوكاني : (ومن المفاسد البالغة إلى حد يرمى بصاحبه وراء حائط الإسلام ويلقيه على أم رأسه من أعلى مكان الدين، أن كثيرا منهم يأتي بأحسن ما يملكه من الأنعام وأجود ما يحوز من المواشى، فينحره عند ذلك القبر، متقربا به إليه، راجيا ما يضمن حصوله له منه، فيهل به لغير الله ويتعبد به لوثن من الأوثان، **إذ أنه لا فرق بين نحر النحائر لأحجار منصوبة يسمونها وثنا وبين قبر لميت يسمونه قبرا، ومجرد الاختلاف في التسمية لا يغني من الحق شيئا**)[2].

وقد ذكر رحمه الله مكايد الشيطان لأهل القبور في تحسينها وتجصيصها وإنارتها وغير ذلك مما يدخل الروعة والمهابة في قلب الزائر (حتى يطلب من صاحب ذلك القبر ما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه فيصير في عداد المشركين)[3].

1 – تطهير الاعتقاد ص 18 ، 19.

2 – شرح الصدور بتحريم رفع القبور ص 20.

3 – شرح الصدور ص 17.

وقد بين رحمه الله معنى الشرك ردا على من يزعم أن المشرك هو من يعبد الأصنام والأحجار .. فقال : (الشرك هو أن يفعل لغير الله شيئا يختص به سواء أطلق على ذلك الغير ما كانت تطلقه عليه الجاهلية كالصنم والوثن أو أطلق عليه اسما آخر، كالولي والقبر والمشهد ..)[1].

وهذا كله مما يبين أن المستغيثين بالأموات من دون الله مشركون وأن فعلهم هو الشرك بعينه، مهما تغيرت الأسماء وكثرت الدعاوى. وقد تقدم في الكلام عن مانع "الجهل" أن مثل هذا الجهل لا يعذر صاحبه، لأنه نقض لأصل الدين، يطلق تكفير صاحبه ولا يتوقف فيه.

قال الشوكاني رحمه الله : (ليس مجرد قول – لا إله إلا الله من دون عمل بمعناها مثبتا للإسلام فإنه لو قالها أحد من أهل الجاهلية وعكف على صنمه يعبده لم يكن ذلك إسلاما)[2].

فيا لجهل من يعذره بجهله ويسميه مسلما، ويا لمضرته على الدعوة إلى التوحيد الخالص.

2. تولي الكافرين من دون المؤمنين

هذا من صور الكفر بالله والردة عن الإسلام يقول سبحانه : ﴿ لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ﴾[3].

قال ابن جرير: (من اتخذ الكفار أعوانا وأنصارا وظهورا يواليهم على دينهم ويظاهرهم على المسلمين فليس من الله في شيء، أي قد برئ من الله وبرئ الله منه بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر، ﴿إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ أي : إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم وتضمروا العدواة ولا تشايعوهم على ما هم عليه

1 – الدر النضيد ص 18 بتصرف يسير.

2 – الدر النضيد ص 40.

3 – آل عمران الآية 28.

من الكفر ولا تعينوهم على مسلم بكفر)[1]. وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[2].

قال ابن جرير (من تولى اليهود والنصارى من دون المؤمنين فإنه من أهل دينهم وملتهم، فإنه لا يتولى متول أحدا إلا وهو به وبدينه وما هو عليه راض وإذا رضيه ورضي دينه فقد عادى ما خالفه وسخطه، وصار حكمُه حكمَه)[3].

وقال ابن حزم : وصح أن قول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ إنما هو على ظاهره بأنه كافر من جملة الكفار، وهذا حق لا يختلف فيه اثنان من المسلمين)[4].

وقال ابن تيمية : (أخبر الله في هذه الآية أن متوليهم هو منهم وقال سبحانه: ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ والنَّبِيّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[5]. فدل على أن الإيمان المذكور ينافي اتخاذهم أولياء ويضاده، ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب، فالقرآن يصدق بعضه بعضا)[6].

إلا أنه في ظل جهل التوحيد وغياب حقيقة الإيمان ظهرت صور كثيرة من الولاء لأعداء الدين من تحكيم تشريعاتهم وطاعتهم والركون إليهم ومجاملتهم ومجالستهم وقت استهزائهم بآيات الله والوقوف في صفهم لمحاربة أهل الحق والرشاد.

قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ (شرط وجوابه أي : لأنه قد خالف الله تعالى ورسوله كما خالفوا، ووجبت معاداتهم، ووجبت له النار كما وجبت لهم، فصار منهم، أي من أصحابهم)[7].

---

1 - تفسير الطبري 228/3.

2 - المائدة الآية 51.

3 - تفسير الطبري 227/3.

4 - المحلى (13 /35) تحقيق حسن زيدان.

5 - المائدة الآية 81.

6 - كتاب الإيمان ص 14 وراجع "الولاء والبراء" (ص 232 – 234.

7 - تفسير القرطبي 217/6.

قال الشوكاني : (قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ أي فإنه من جملتهم وفي عدادهم وهو وعيد شديد، فإن المعصية الموجبة للكفر هى التى بلغت إلى غاية ليس وراءها غاية ..) إلى أن قال في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (وهذا الشروع في بيان أحكام المرتدين بعد بيان أن موالاة الكافرين من المسلم كفر، وذلك نوع من أنواع الردة)[1].

وقال ابن تيمية : (ولما نهى عن موالاة الكفار وبين أن من تولاهم من المخاطبين فإنه منهم، بيَّن أن من تولاهم وارتد عن دين الإسلام لا يضر الإسلام شيئا)[2].

تولي المرتد

قال أبو بكر بن العربي في تفسيره لقوله تعالى ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ (إن الآية تفيد نفى اتخاذ الأولياء من الكفار جميعا)[3] فالنهى عن الموالاة لا يخص اليهود والنصارى لأن لفظ "اليهود والنصارى" هو لقب ومفهوم اللقب لا حجة فيه عند الجمهور، فالنهى يعم الكفار جميعا، كما دل على ذلك القرآن، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ ﴾[4]، وقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إِنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[5].

ولذلك يدخل في جملته المرتد لأنه كافر، وتسميته مرتد لا تمنع من إطلاق اسم الكفر عليه كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[6]. وقال سبحانه: ﴿

---

1 - فتح القدير 2/50،51.

2 - الفتاوى 18/300.

3 - أحكام القرآن 2/630.

4 - آل عمران 28.

5 - التوبة الآية 23.

6 - البقرة الآية 217.

كَيْفَ يَهْدِي اللّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[1].

قال ابن تيمية (وكفر الردة أغلظ بالإجماع من الكفر الأصلي)[2].

وقد مر بنا في الكلام عن الممتنعين أن أمثال هؤلاء وإن كان كفرهم مما قد يخفى إلا أنه لا يتوقف تكفيرهم على اكتمال الشروط وانتفاء الموانع.

1 – آل عمران الآية 86.

2 – الفتاوى 478/28.

خاتمة

الولاء والبراء عقيدة

(الولاء والبراء هو الصورة الفعلية للتطبيق الواقعى لهذه العقيدة وهو مفهوم ضخم في حس المسلم بمقدار ضخامة وعظمة هذه العقيدة والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّين قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

والله جل جلاله أراد للمسلم بل للإنسان الكرامة في هذه الأرض ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مّنَ الطَّيّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾[2]. فحين يكون ولاء المسلم لدينه وحزبه المؤمنين فهو بهذا يقدر هذا التكريم حق قدره ويعبد الله حق عبادته لأنه تخلى بل وعادى كل عبودية تريد إخضاعه لسلطانها من دون الله أما حين ينتكس فيعبد غير الله سواء بالشعائر أم بالشرائع أم بالطاعة والانقياد، فإنه بهذا يهبط من تلك المكانة والكرامة إلى عبودية أهواء شتى، وآراء ومذاهب تمزق عليه حياته، وتضيق عليه آخرته فيعيش شقيا، وإن زعم أنه سعيد، ذلك أن مقياس السعادة والشقاوة في التصور الإسلامى، نابع من عبادة الله وحده وتحكيم شرعه والخلوص له أو عكس ذلك عبادة الطاغوت والهوى والشهوة وتلك هي دكات الشقاء التى يعيش فيها كل من أعرض عن هدى الله ودينه . وموالاة غير المؤمنين – فضلا عن أنها ردة وعصيان لله سبحانه – هى مصدر التذبذب والفصام والنكد في حياة فاعلها، لأنه لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وفي هذا العصر الذي اختلطت فيه المفاهيم، واضطربت فيه الآراء، وخلط الحق بالباطل بل أقصى الحق ورفعت شارة الباطل، أين يقف المسلم ؟ أين يكون ولاؤه ؟ ولمن يكون ؟ وهو يرى الكفر الصريح معلنا ومنفذا في حياة الناس ثم يضع لذلك "لا فتة بسيطة" إن ذلك لا يتعارض مع الإسلام.

ومثال ذلك من يدين بالاشتراكية أو الديمقراطية أو العلمانية أو القومية أو الشيوعية ثم يقال هذا لا يعارض الإسلام لأنه علاقة بين العبد وربه، لمن يكون ولاء المسلم وهو يرى شرع الله محيدا من الأرض ومحاربا، ثم يستورد القانون البشري ليكون هو دستور الناس في

1 – البقرة الآية 256.

2 – الإسراء الآية 70.

حياتهم ومنهج مسيرتهم، ثم يقال إن هذا لا يعارض الإسلام لأن التشريع الإسلامي – سواء قيلت بلسان الحال أو المقال – لم يعد مسايرا لركب الحضارة والتطور ؟

لمن يكون ولاء المسلم وهو يرى المنافقين يتمسحون باسم الإسلام، وهم في الحقيقة أخطر على الدين من أعدائه الصرحاء؟

هذه أسئلة وأسئلة غيرها كثيرة... والإجابة عليها تكمن في الحقيقة التالية.. أنه لا يمكن للمسلم أن يكون ولاؤه لله ولدينه وللمؤمنين خالصا، إلا إذا كان مدركا لحقيقة التوحيد " لا إله إلا الله محمد رسول الله " مما تثلا لها، مدركا مدلولها ومعناها، عارفا بمقتضياتها ولوازمها، ثم علمه بالجاهلية والشرك والكفر والردة والنفاق حتى لا يكون مصيدة للوقوع في هذا الشر، لأنه لا يعرف الإسلام من لا يعرف الجاهلية. ثم عمله بحقيقة الولاء والبراء في المفهوم الإسلامي الصحيح وهو أن الولاء والحب والنصرة للمؤمنين من أي جنس كانوا وبأي لغة نطقوا وفي أي مكان حلوا، لأنه لا يؤمن بما تؤمن به الجاهليات من لوثة الدم ونتن العرق وخسة التراب.

فهو مع إخوانه المؤمنين بقلبه ولسانه وماله ودمه، ويألم لألمهم ويفرح لفرحهم، وبغضه وبراؤه لجميع أعداء الله، سواءً كانوا كفارا أصليين أو مرتدين أومنافقين، وموقفه منهم : الجهاد بالنفس والمال والقلم واللسان وكل ما أوتي من طاقة وعلى حساب جهده وطاقته.

إن هذه هي الحقيقة التي إذا أدركها المسلم وعمل بها، يستطيع أن يحدد موقفه.. فيعرف من يوالي ومن يعادي، وماذا يريد الإسلام منه وماذا يراد للإسلام من أعدائه.

وبهذا يكون مسلما واعيا عزيزا بعزة الله غير واهن وحزين لأن الله معه وهو القائل : ﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [1]. ومن كان الله معه فلن يضره أن تجتمع البشرية بكاملها لأن تضره، فهي بمجموعها لا تستطيع ذلك، إلا إذا كان الله يريد له ذلك، وإلا فهي أعجز من أن تنال منه شيئا بسيطا بغير قدرة الله وإرادته)[2]. وإلى هنا تم ما أردت جمعه وقصدت ختامه بالولاء والبراء لأنه لا سبيل إلى ترسيخ عقيدته إلا بتحقيق مسائل الكفر والإيمان والعمل بمقتضاها. وما لم تحقق عقيدة الولاء والبراء فإن المجال سيبقى مفتوحا لإشعال نار الفتنة وإثارة نقع الفساد. والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

---

1 – آل عمران الآية 139.

2 – الولاء والبراء ص 248 – 251.

منبر التوحيد والجهاد

* * *

http://www.tawhed.ws
http://www.almaqdese.net
http://www.alsunnah.info
http://www.abu-qatada.com
http://www.mtj.tw

المحتويات

الموضوع الصفحة

مقدمة .....

فصل: حقيقة التوحيد

1. معنى لاإله إلا الله .....
2. شروط لاإله إلا الله .....
3. لا إسلام لمن لم يحقق التوحيد .....
4. لا يجوز التقليد في التوحيد .....
5. الكفر بالطاغوت والإيمان بالله .....

فصل: بطلان الشرك وقبحه

1. الميثاق والفطرة حجة على بطلان الشرك.....
2. قبح الشرك في العقل.....
3. الإحتجاج بالربوبية على بطلان الشرك في الألوهية .....
4. اقتران وصفي الشرك والجهل .....

فصل: تقسيم الدين إلى أصول وفروع وعلاقته بإجراء الحكم على المعين

تقسيم الدين .....

بيان ما يسع الجهل فيه من أمور الدين .....

بيان ما لا يسع الجهل فيه من أمور الدين .....

الإتفاق في الأصول .....

إجراء الحكم على المعين .....

المسائل الظاهرة والمسائل الخفية .....

فصل: موانع التكفير المعتبرة

1. الجهل المعتبر

1. هدم قاعدة العذر بالجهل.....
2. الجهل الذي يعذر صاحبه.....
3. أقسام أهل البدع .....
4. جهل الصفة .....
5. هل يعذر الناس اليوم .....

الردة

1. الردة عند الفقهاء.....
2. التبصير وإزالة الشبهة بعد الحكم بالردة.....
3. الغالب في الردة أن تكون عن شبهة أو جهل.....

2. التأويل المعتبر

الكلام عن التأويل .....

الكلام عن الاجتهاد .....

الخطأ فيما كان عرضة للتأويل .....

العذر بالتأويل .....

3. مانع الخطأ

الخطأ .....

رخصة الخطإ في الاجتهاد لمن حقق التوحيد .....

وصف العلماء للخطإ الذي يعذر صاحبه .....

4. مانع الإكراه

مانع الإكراه .....

شروط الإكراه .....

مسائل ليست من الإكراه .....

فصل: الممتنعين

1. الفرد له حكم الطائفة في الممتنعين .....
2. تكفير الممتنعين قبل تبين الشروط وانتفاء الموانع .....
3. احتمال وجود مانع من التكفير لا يصرف الحكم الظاهر عن الممتنعين .....

فصل: شبهات حول العذر بالجهل

1. شبهة أن الضلال لا يكون إلا بعد البيان .....
2. قصة الحواريين .....
3. حديث القدرة .....
4. حديث ذات أنواط .....
5. حديث سجود معاذ .....
6. حديث عائشة في صفة العلم .....
7. حديث حذيفة في جهل الفرائض .....

فصل: أمثلة للإيضاح

1. شرك الدعاء والاستغاثة .....
2. تولي الكافرين من دون المؤمنين .....

خاتمة

الولاء والبراء عقيدة .....

المحتويات .....